البابا شنوده الثالث

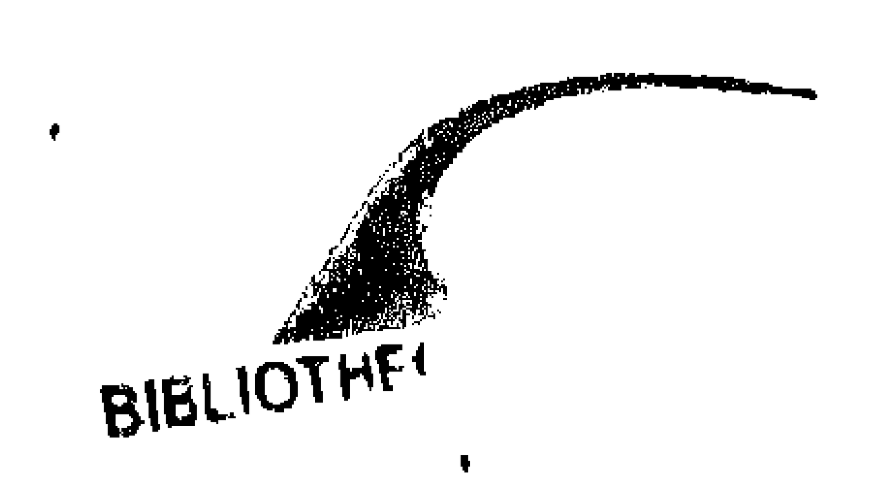
تأملات فى حياة

القديس أنطونيوس



اهداءات ٢٠٠٢
بطريركية الأقباط الأرثوذكس
الاسكندرية

قداسة البابا شنوده الثالث

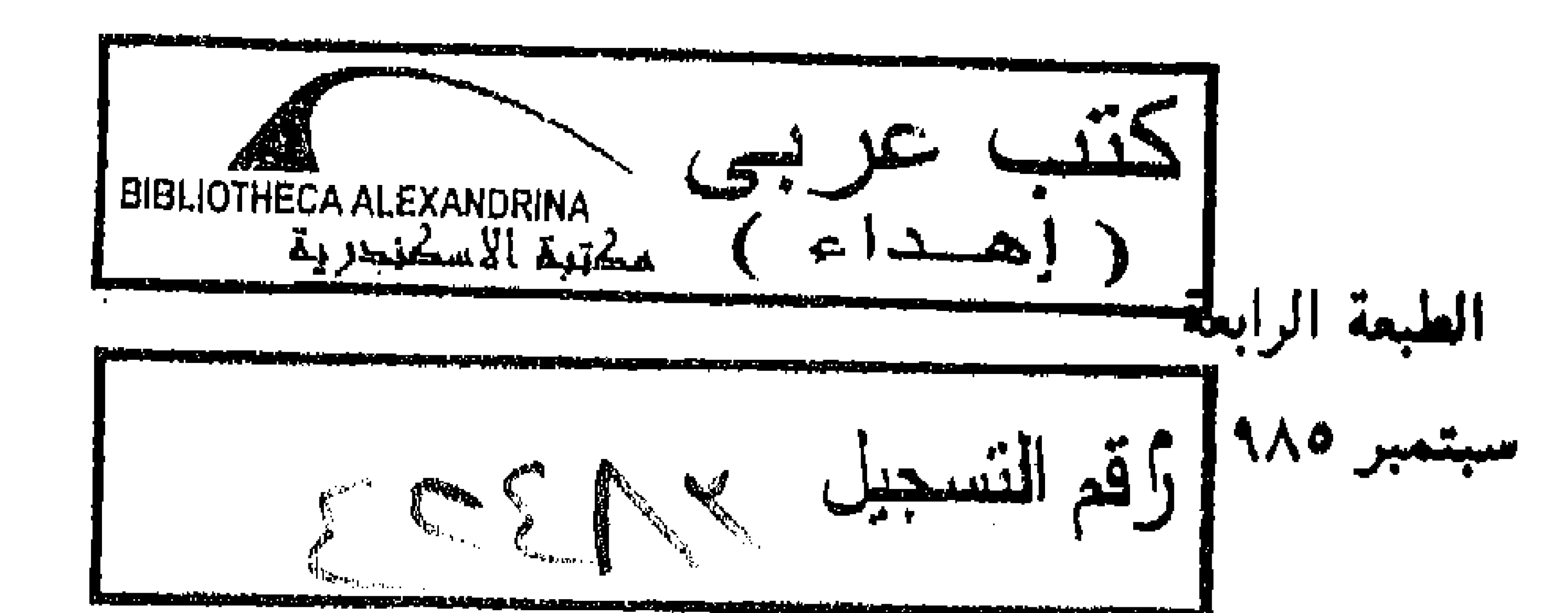


تأملات فى حياة القديس أنطونيوس

Contemplations On The Life Of SAINT ANTONY THE GREAT

By

H.H. POPE SHENOUDA III



4 th Reprint
Sep. 1985

الطبعة الرابعة
سبتمبر ١٩٨٥

الكتاب : تأملات فى حياة القديس أنطونيوس .
المؤلف : قداسة البابا شنوده الثالث .
الطبعة : الرابعة سبتمبر ١٩٨٥ م
المطبعة : الأنبا رويس (الأوفست) بالعباسية .
رقم الإيداع بدار الكتب : ٤٢٠٦ / ١٩٨٠ م .



القديس العظيم الأنبا أنطونيوس



قداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث
في كنيسة الأنبا أنطونيوس الأثرية بالدير

فهرست

صفحة

مقـــدمـة

كانت كنيسة الأنبا أنطونيوس بشبرا هى الفرع الرئيسى ، الّذى أقوم فيه بخدمة التربية الكنسية قبل سيامتى راهباً ...

فلما شاء الله أن أنزل للخدمة ، كان من الطبيعى أن أُدعى من هذه الكنيسة ، لألقى كلمة عن القديس الأنبا أنطونيوس ، فى الأسبوع الروحى الذى تقيمه هذه الكنيسة كل عام بمناسبة عيد الأنبا أنطونيوس ، فى ٢٢ طوبة (آخر يناير) .

وهذا الكتاب ثمرة عدة محاضرات ، أُلقيت فى كنيسة القديس الأنبا أنطونيوس بشبرا . وكان يحيرنى فى كل عام ، اختيار الموضوع الذى أقوله ، وقد غطى المتكلمون قبلى جميع النقاط ! وأتذكر أننى قلت لشعب الكنيسة فى أحد أعياد الأنبا أنطونيوس :

أن القديس الأنبا أنطونيوس ، له فضائل عديدة . ولعلكم قد سمعتم الكثير عنه فى حفلاتنا التى تقام فى الكنيسة كل عام ... وفى طريقى فى هذه الليلة إلى ههنا ، كان يجلس معى فى العربة الأب الموقر القمص إبراهيم عطية . فقلت له :

لست أدرى عن أى شىء أحدث الناس فى هذه الليلة ، فقد سمعوا كثيراً عن الأنبا أنطونيوس ، وليس من جديد ؟!

كل عام يسمعون كل شىء عن الأنبا أنطونيوس ، أو يخيل لنا أن كل شىء قد قيل .

فما هو الجديد الذى يمكن أن يُقال لهم عن الأنبا أنطونيوس ؟ لست أعلم .

فأجابنى ... أن المياه يشربها الناس كلهم ، ولا يسأمونها أبداً .

فقلت : ولكن المياه لا يشربها العقل . إن المعدة لا تسأم الشىء المتكرر ، أما العقل فيسأمه . لو كان العقل يشرب الماء باستمرار ، لتبرم منه ...

حقاً ، ماذا يمكن أن نقول عن الأنبا أنطونيوس ؟

ولعلنى أكون قد إخترت بعض النقاط التى لم يتعرض لها المتكلمون .

هذه أقدمها لك أيها القارىء المحبوب ، فى هذا الكتاب .

شنوده الثالث

فى كنيسة الأنبا أنطونيوس بشبرا

يسرنى أن أحضر معكم هذه الليلة ، لنحتفل بعيد أبينا القديس العظيم الأنبا أنطونيوس .

فى الحقيقة أننى عندما أدخل إلى هذه الكنيسة ، ينتابنى شعور مخالف لشعورى فى أية كنيسة أخرى .

فربما أذهب إلى كنيسة أخرى ، ككاهن ، أو كراع ، أو كأسقف... ولكننى عندما آتى إلى هذه الكنيسة ، أتذكر باستمرار أننى إبن وتلميذ ... فقد تتلمذت فى هذا المكان المبارك ، وفى هذه الكنيسة المقدسة ، وكل شبر فيها له فى قلبى ذكريات مقدسة .

واحببنا جميعاً إسم القديس الأنبا أنطونيوس :

حتى أن كل فصول مدارس الأحد التى كنت أقوم بالتدريس فيها فى كنائس أخرى ، كانت تحمل إسم الأنبا أنطونيوس أيضاً ... وعندما دخلت فى الحياة الرهبانية ، اخترت إسم الراهب أنطونيوس ليكون إسمى فى الرهبنة .

وعندما وضعنى الله فى هذه المسئولية ، ظللت محتفظاً بمحبتى لهذا الإسم المبارك . فأول كاهن قمت برسامته ، كان على إسم أنطونيوس أيضاً ، وهو من أبناء وأساتذة هذه الكنيسة . إنه القمص أنطونيوس راغب حالياً .

وتخرج من هذه الكنيسة كثيرون رسموا بإسم أنطونيوس :

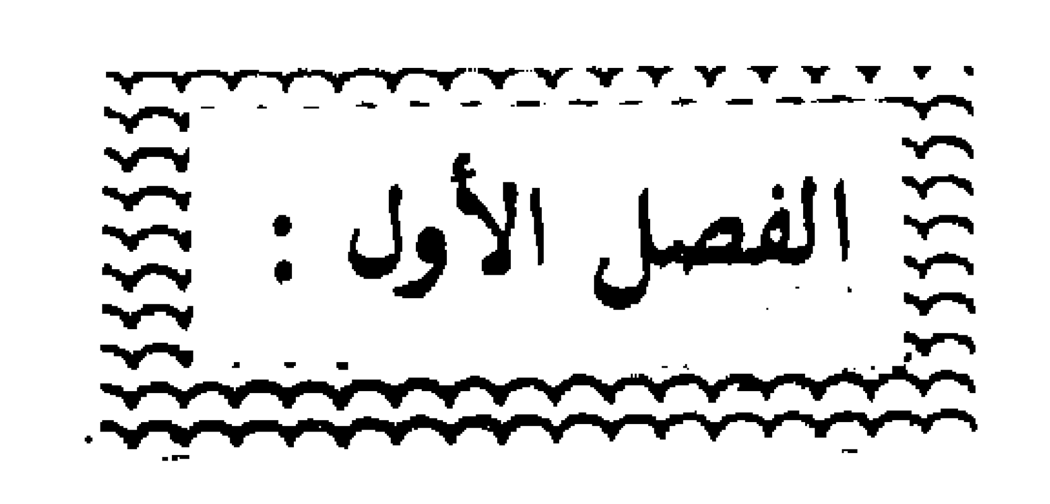
منهم القمص أنطونيوس يونان بالمنصورة ، والقمص أنطونيوس باقى نيح الله نفسه . والقس أنطونيوس فرج (فى لندن) . كما قمت بسيامة القس أنطونيوس حنين (فى لوس أنجلوس) ، والقمص أنطونيوس ثابت بالأسكندرية .

وقد إشترينا أربعين فداناً فى ضواحى لوس أنجلوس بأمريكا ، أقيم عليها دير بإسم القديس أنطونيوس . وأول كنيسة أسسناها فى أمريكا فى أيامى ، كانت على إسم العذراء والقديس أنطونيوس فى منطقة كوينز .

أيضاً أول أسقف سيم لنا فى أفريقيا ، كان بإسم الأنبا أنطونيوس مرقس . وأول كنيسة ودير أسسناهما فى نيروبى بكينيا ، بإسم مار مرقس والأنبا أنطونيوس . كما أسسنا كنيسة فى إستراليا بإسم الأنبا أنطونيوس ، وأخرى فى ألمانيا بنفس الأسم . وكنيسة فى مصر الجديدة بإسم القديس جوارجيوس والأنبا أنطونيوس . وقمنا بسيامة كاهن فرنسى بإسم القس أنطونيوس ، وعدداً آخر من الآباء الكهنة ...

وأصبح إسم القديس الأنبا أنطونيوس يمثل فى قلوبنا فكرة ومبدأ وروحانية خاصة ، تهتز له قلوبنا أينما ذهبنا .

كما أصبح لنا مركز قبطى فى فرانكفورت بألمانيا ، ودير بإسم الأنبا أنطونيوس أيضاً .



الفصل الأول :

محبتنا للقديسين وأكرامنا لهم

اليوم فى عيد الأنبا أنطونيوس ، أتأمل معكم إكرام كنيستنا للقديسين . فى الواقع أن كل أبناء الكنيسة القبطية يحبون القديسين محبة كبيرة ، ربما لا توجد فى أية كنيسة أخرى .

أنظروا إلى أعياد القديسة العذراء مثلا ، وأعياد مار جرجس ، وأعياد الملاك ميخائيل ، والأنبا أنطونيوس ، والقديسة دميانة ، والأنبا رويس والأنبا بيشوى ، والأنبا موسى الأسود ، ومكسيموس ودوماديوس ... كم ترون من زحام الناس ومحبتهم وتشفعهم بالقديسين ... !

كم من قديسين تركوا العالم ، ولكن العالم لم يتركهم ولا نسيهم .

هم أمامنا فى كل حين ، نقابل حياتهم بوفاء عميق . وفاء نحو آباء عاشوا فى غير زمننا . ولكنهم مازالوا فى قلوبنا وفى أفكارنا . إنها مشاعر وفاء ، ومشاعر حب نحو الآباء .

وحب الآباء الروحيين فضيلة راسخة فى أبناء كنيستنا سواء الآباء الأحياء ، أو الذين إنتقلوا منهم ... نقابلهم جميعاً بكل توقير لأبوتهم ، ولحياتهم ، وذكراهم .

ولا يفهم الآباء خطأ ، ما قد فهمه البعض من عبارة : « لا تدعوا لكم أبا على الأرض » . فهذه العبارة قالها السيد المسيح للرسل الإثنى عشر فقط ، لا لعامة الناس ، على إعتبار أن الرسل وخلفاءهم ليس لهم آباء على الأرض . أما بقية الناس فلهم آباء .

يوحنا الرسول يقول : « **يا أولادى** ، أكتب لكم هذا لكى لا تخطئوا » (١ يو ٢ : ١) . وبولس الرسول يصف تيموثاوس بأنه « **الإبن الحبيب** » (٢ تى ١ : ٢) .

وتيطس « **الإبن الصريح** حسب الإيمان » (تى ١ : ٤) . و يقول لفليمون : « **أطلب** إليك لأجل **إبنى أنسيموس** الذى ولدته فى قيودى » (فل ١٠) . **و يقول لأهل** غلاطية « **يا أولادى الذين أتمخض بكم أيضاً** » (غل ٤ : ١٩) . **و يقول لأهل** كورنثوس « **أنا ولدتكم** فى المسيح يسوع بالإنجيل » (١ كو ٤ : ١٤ - ١٧) . **و بطرس** الرسول يقول : « **مرقس إبنى** » (١ بط ٥ : ١٣) .

الأبوة الروحية موجودة إذن فى الكنيسة ونحن نحب آباءنا .

وهناك رابطة كبيرة بيننا ، وبين الذين فى الفردوس .

رابطة بين أهل العالم الحاضر والآخر . وهذه الرابطة مستمرة . إكرام القديسين دليل على وجودها . فالله ليس إله أموات . وإنما إله أحياء .

ونحن نشعر أن هؤلاء القديسين مازالوا أحياء ، وأنهم يعيشون بيننا ، ونتحدث إليهم تماماً كما نتحدث إلى الأحياء .

يقف إنسان أمام أيقونة العذراء أو مار جرجس أو الأنبا أنطونيوس ، و يطلب ، و يتكلم فى دالة ، و يعاتب أيضاً .

نحن لا نشعر إطلاقاً أن القديسين قد فارقوا عالمنا ، أو انتقلوا منه أو انتهوا ...؟! كلا ، بل نشعر بوجودهم باستمرار . ونذكرهم ليس فى أعيادهم فقط ، بل فى كثير من صلواتنا .

القديس الأنبا أنطونيوس مثلاً ، لا نذكره فقط فى عيده ، إنما يذكر فى مجمع الآباء فى كل قداسات الكنيسة . وليس فقط فى القداسات ، إنما أيضاً فى تسبحة نصف الليل كل يوم فى الأبصلمودية ، نذكره مع آبائنا جميعاً ...

نحن لا ننسى آباءنا أبداً ، مهما نسى الغير آباءهم وأجدادهم . إنها كنيسة تتسم بالوفاء وحب الآباء .

وفى ذكرنا للقديسين وإكرامنا لهم ، إنما نعلن إيماننا بالأبدية ، وبأن الحياة لا تنتهى بالموت ، وإنما لها إمتداد بعد الموت ...

لولا شعور كل واحد منا ، بأن الأنبا أنطونيوس لا يزال حياً ، يشفع فينا و يشعر بنا ، ما كنا نحتفل به الآن ، ونردد له الألحان ... ! أنحتفل بحفنة تراب ؟ كلا ، بل

بحياة . إننا نحتفل بكائن حى ، نثق بأن حياته مستمرة ، فى الأبدية . وهذا يعطينا أيضاً ثقة ، بأن حياتنا ستبقى مثل آبائنا ...

وفى إكرامنا للقديسين ، إنما أيضاً نكرم الفضيلة ، التى عاشوها .

الذين يكرمون رجال العلم ، إنما يكرمون العلم أيضاً ... والذين يكرمون الأبطال ، إنما يكرمون البطولة فيهم ، والذين يكرمون الأذكياء ، إنما يكرمون الذكاء ضمناً . كذلك الذين يحبون القديسين و يكرمونهم ، إنما يحبون القداسة فيهم و يكرمونها ...

نحن نحب القديسين ، لأن فى حياتهم صفات نحبها . والكنيسة فى إكرامها للقديسين ، إنما تكرم صفات القداسة فى أشخاصهم .

حينما نقرأ كتاباً روحياً ، نطلع على مبادىء وأفكار روحية .

أما فى حياة القديسين ، فنرى المبادىء الروحية ممثلة عملياً .

ولنثق أن الفضائل ليست أموراً نظر ية ، بل هى واقع ملموس ، فنطمئن ونثق أن طر يق الكمال ممكن التنفيذ ...

وحياة قديس كالأنبا أنطونيوس تعلمنا أشياء كثيرة .

تعطينا فكرة كيف أن الإنسان يمكنه أن يكتفى بالله ، ومعه لا يحتاج إلى آخر ، ولا يعوزه شىء . بحيث يستطيع أن يترك الكل من أجل الرب ، الذى يصير له الكل فى الكل .

وتعلمنا سيرته أيضاً ، كيف يمكن أن الإنسان يجلس وحده ، فلا يمل ولا يسأم ولا يضجر ، لأن قلبه مع الله فى كل حين ، شبعان بالرب ...

تعطينا حياته مثالاً عملياً عن الصداقة مع الله ، والعشرة مع الله ، التى تملأ القلب وتملأ الفكر ، وتملأ الحياة ، فيقول مع المزمور : « معك لا أر يد شيئاً على الأرض » . إنها حياة : « الإنحلال من الكل . للإرتباط بالواحد » أى ينحل من كل أحد ، ومن كل شىء ، لكى يرتبط بواحد هو الله ...

وما أكثر الفضائل التى نراها عملياً فى حياة هذا القديس .

فى المعرفة ، فى الإفراز ، فى التواضع ، فى الهدوء والسكون . فى الوحدة فى محبة الله ، أترى إنساناً يحوى كل هذا فى حياته ؟! لأجل هذا قلت لكم أن القديسين عينات ممتازة من البشر...

ومحبتنا وإكرامنا للقديس الأنبا أنطونيوس ، تعني أيضاً محبتنا لحياة الصلاة والتأمل والنسك ، التي إتصفت بها حياة الرهبنة .

لو لا إعجاب الناس بهذه الحياة النسكية والتأملية التي عاشها الأنبا أنطونيوس ما كانوا يبنون الكنائس والمذابح على إسمه ، وما كانوا يرسمون له الأيقونات ، و يقيمون له الأعياد .

وإكرامنا للقديسين يعني أيضاً لله نفسه ...

لأنه قال : من يكرمكم يكرمني . ومن يقبلكم يقبلني ... ولأننا نحب الله ، لذلك نحب أولاده الذين أحبوه ...

والكنيسة في إكرامها للقديسين ، وزعت أعيادهم على مدار السنة .

في كل يوم من أيامنا ، تحتفل الكنيسة بعيد أحد القديسين . أو بعض القديسين ، لا يخلو يوم من تذكار قديس ...

ونحن نحتفل بهؤلاء القديسين في أيام إنتقالهم من هذا العالم ، في يوم الوفاه أو يوم الإستشهاد ، لأنه اليوم الذي أكمل فيه القديس جهاده على الأرض ... وكما قال الرسول : « أنظروا إلى نهاية سيرتهم ، فتمثلوا بإيمانهم » (عب ١٣ : ٧) .

هؤلاء القديسون الذين نحتفل بهم ، إنما هم عينات ممتازة .

إن كل من يحيا حياة الإيمان ، يسميه الكتاب قديساً .

يكتب القديس بولس الرسول إلى : « القديسين الذين في أفسس » (أف ١ : ١) وإلى : « جميع القديسين في المسيح يسوع الذين في فيلبي » (في ١ : ١) ويختم رسالته إليهم بعبارة « يسلم عليكم جميع القديسين » (في ٤ : ٢٢) . و يكتب أيضاً إلى : « القديسين الذين في كولوسي » (كو ١ : ٢) . ويخاطب العبرانيين بقوله : « من ثم أيها الأخوة القديسون ، شركاء الدعوة السماوية » (عب ٣ : ١) .

لأشك أن كل مؤمن ، نزع الإنسان العتيق ، ولبس المسيح في المعمودية (غل ٣ : ٢٧) ، وسكن فيه الروح القدس ، وعاش في طاعة الرب ، وفي ممارسة أسراره المقدسة ، هو قديس .

لكننا هنا لا نتكلم عن القداسة العادية ، إنما نقصد العينات الممتازة ، التى إرتفعت روحياً فوق المستوى العادى كالأنبا أنطونيوس .

هؤلاء جاهدوا كثيراً لكى يصلوا إلى هذه القداسة . وكل جهاد لهم ، إنما برهنوا فيه على محبتهم لله ، وعلى أنهم مستعدون لبذل كل جهد من أجل الثبات فى الرب .

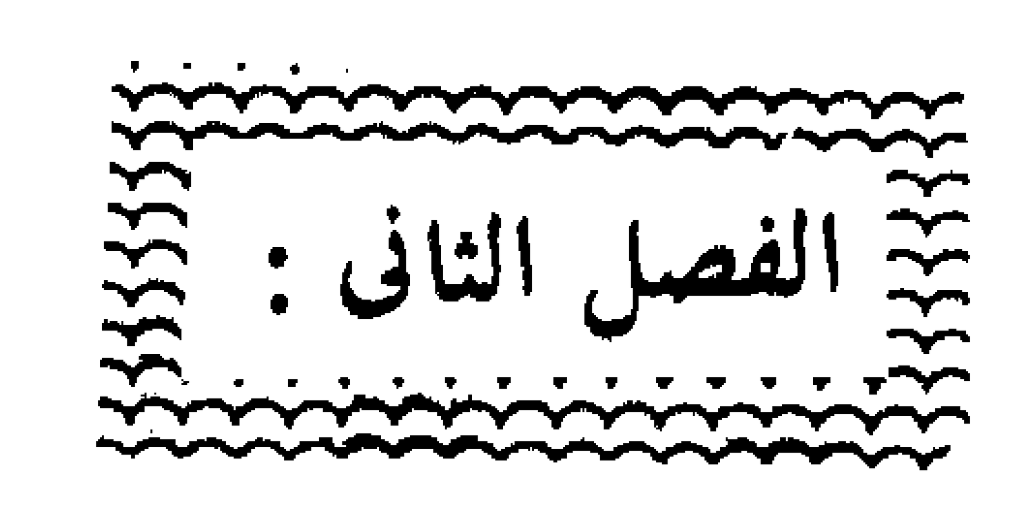
وهذا لا يمنع من أن البعض ولدتهم أمهاتهم قديسين ، أو كانوا فى بطون أمهاتهم قديسين ...

مثال ذلك يوحنا المعمدان الذى قيل عنه : « ومن بطن أمه يمتلىء من الروح القدس » (لو ١ : ١٥) . والذى أحس بالمسيح فى بطن مريم ، فإرتكض يوحنا بابتهاج فى بطن أمه فرحاً بالمسيح (لو ١ : ٤٣) ...

ومثال ذلك أيضاً أرمياء النبى ، الذى قال له الرب : « قبلما صورتك فى البطن عرفتك . وقبلما خرجت من الرحم قدستك . جعلتك نبياً للشعوب » (أر ١ : ٥) .

هذه عينات نادرة ، مستوى عال وهبة من الله .

أما الأنبا أنطونيوس ، فهو شاب ولد فى أسرة عادية ، غنية ، **ولكنه كافح ، وانتصر على عقبات كثيرة ، حتى وصل ...**



الفصل الثانى :

القديس أنطونيوس جاهد وانتصر

لم يمتلىء بالروح القدس وهو فى بطن أمه ، كالقديس يوحنا المعمدان . ولكنه ولد كشاب عادى ، من أسرة غنية . وكان المنتظر لمثله أن يرث أباه فى غناه وسلطته ، وأن يتزوج ، و يعيش سعيداً فى ظل الغنى والعظمة ، و يكون ناجحاً فى حياته وكل الإمكانيات متوفرة .

ولكن الأنبا أنطونيوس ، جاهد لا لكى يستفيد من هذه الإمكانيات ، وإنما لكى ينحل منها جميعاً . وكيف كان هذا ؟

١ - نجح فى إختبار « ما أعسر أن يدخل غنى إلى ملكوت الله » (مت ١٩ : ٢٣) . قال السيد المسيح هذا ، أما الأنبا أنطونيوس ، فأجابه : لا تحسبنى يارب من هؤلاء الأغنياء . إننى حسب وصيتك سأبيع كل مالى وأعطيه للفقراء ، وأتبعك فقيراً .

والشاب الغنى أنطونيوس دخل الملكوت ، وأدخل الآلاف معه ...

حقاً كان يملك المال ، ولكن المال لم يكن يملكه ...

كان هو السيد على المال ، يصرفه كيفما شاء . ولم يسمح للمال أن يكون سيداً ، يقوده فى مسالك أخرى .

ولأن المال لم يملك قلبه ، إستطاع أن يتركه و يوزعه ، ويمضى إلى الملكوت بدونه . وحينما كان الشياطين ينثرون الذهب أمامه على الرمل ، ما كان يهتم به . كان كالحصى فى نظره . وفقد المال قيمته فى قلب الأنبا أنطونيوس ، لأن قلبه كان منشغلاً بما هو أثمن وأهم .

إذن المال فى حد ذاته ليس هو الخطورة ، إنما الخطورة تكمن فى محبة المال ، والتعلق به والسعى وراءه ، والإتكال عليه ، والإفتخار به .

٢ ـ وكما إنتصر الأنبا أنطونيوس على محبة المال ، إنتصر أيضاً على محبة الجاه والسلطة ، فلم يهتم بأن يكون له مركز أبيه .

٣ ـ بل إنتصر على محبة العالم كله . ونفذ وصية : « لا تحبوا العالم ، ولا الأشياء التي في العالم ، لأن العالم يبيد وشهوته معه » .

وصار الأنبا أنطونيوس قلباً نقياً خالصاً ، ليس فيه شيء من شهوة المادة والجسد والملاذ الدنيوية المتنوعة .

كان قلباً مات تماماً عن العالم وكل ما فيه .

٤ ـ وكما انتصر في كل هذه الميادين ، إنتصر على محبته لأخته أيضاً ، ونجح في تدبير مسئوليته من جهتها ...

كان يمكنه أن يقول : ماذا أفعل ؟ أنا أريد الرب ، ولكن ظروفي العائلية لا تساعدني ، وأنا مسئول عنها ... ؟

كان يحب أخته ، ولكن كان يحب الرب أكثر من أخته ، لذلك أمكنه أن ينتصر . وأودع أخته في أحد بيوت العذارى ، وشق طريقه نحو الله ، منتصراً على هذه العقبة .

٥ ـ وفي أول جهاده ، حاربه الشياطين بشكوك عديدة ، فانتصر عليها .

شكوك من جهة صحة الطريق ذاته ، وإمكان استخدام المال في أعمال الخير تحت إدارته وتصرفه ... وهكذا يوقعونه في التردد . ويحولونه من حياة الصلاة والتأمل إلى حياة الخدمة ...

شكوك أخرى من جهة أخته ومدى إطمئنانه عليها .

شكوك ثالثة من جهة نجاحه في هذا الطريق ، وقدرته على الإستمرار فيه ... وشكوك عديدة أخرى لا حصر لها .

ولكن قلبه كان راسخاً ، لم يتزعزع إطلاقاً أمام الشكوك .

٦ ـ صادفت الأنبا أنطونيوس عقبة أخرى هي الإرشاد ، فانتصر عليها :

عاش وحيداً ، بلا مرشد ، بلا أب إعتراف ، بلا كنيسة ، بلا معونة من أحد . ولكنه انتصر على هذا كله أيضاً ...

أخذ أولاً من النساك الذين على حافة القرية . ولما دخل إلى الجبل ، بدأ يأخذ من الله مباشرة . وأعطانا درساً أنه حيثما لا توجد معونات بشرية ، فإن المعونة الإلهية لا تتخلى .

ومنح الله لهذا القديس إفرازاً وفهماً روحياً وحكمة لم تكن للذين تمتعوا بارشاد من البشر .

٧ - ثم دخل الأنبا أنطونيوس فى حرب أخرى وانتصر فيها ، وهى حرب الرعب والخوف ، فى البرية القفرة المنعزلة ...

لما وجد الشياطين أن المال والعظمة لا تهمه ، وأن الأفكار والشكوك لا تزعزعه وأن الشهوات لا تغلبه بدأوا معه حرباً عنيفة لإخافته . فكانوا يظهرون له فى هيئة وحوش كثيرة ، لها أصوات مخيفة عالية ، تهجم عليه بقصد إفتراسه . ولكن قلبه ما كان يخاف ...

بل انتصر على هذه المخاوف بوسائل ثلاث : الإتضاع ، والفهم ، والصلاة :

بالإتضاع كان يقول لهم : [أيها الأقوياء ، ماذا تريدون منى أنا الضعيف ،أنا أضعف من أن أقاتل أصغركم] . وكان يصلى قائلاً : [إنقذنى يارب من هؤلاء الذين يظنون أننى شىء ، وأنا تراب ورماد] . فلما كانوا يسمعون هذه الصلاة المملوءة إتضاعاً ، كانوا ينقشعون كالدخان .

ومن جهة الفهم ، كان يقول : [إننى أعجب لتجمهركم علىّ بهذه الكثرة . ولو كنتم أقوياء حقاً . لكان واحد منكم يكفى] . وهكذا بالإيمان أيقن من ضعف الشياطين ، وكان هذا الإيمان يخزيهم فيمشون ...

وقد استعملوا معه طرق الإيذاء والضرب ، وبخاصة حينما كان ساكناً فى مقبرة ، ولكنه صمد ، وكان يصلى مزمور: « الرب نورى وخلاصى ، ممن أخاف . الرب عاضد حياتى ، ممن أرتعب ؟! إن يحاربنى جيش فلن يخاف قلبى . وإن قام علىّ القتال ، ففى هذا أنا مطمئن » .

وكان فى إيمان عميق يقول لمهاجميه : [إن كان الله قد أعطاكم سلطاناً علىّ ، فمن أنا حتى أقاوم الله ؟! وإن كان الله لم يعطكم سلطاناً علىّ ، فلن يستطيع واحد منكم أن يؤذينى] .

وهكذا عاش الأنبا أنطونيوس فى حياة الإيمان ، لا يخاف .

وفى كل مرة ينتصر ، كان يزداد إيمانه ، و ينتزع منه الخوف بالأكثر ، إلى أن زال منه الخوف تماماً . وقال أيضاً : [أنا لا أخاف الله ، لأنى أحب الله] .

هذا هو رجل الجبال ، جبار البر ية الذى لا يخاف ، حتى من الوحوش المفترسة ، وحتى من الشياطين .

و بخبرته الروحية ، استطاع فيما بعد أن يجمع تلاميذه ، و يلقى عليهم كلمة عميقة عن ضعف الشياطين وعدم الخوف منهم . وقد سجل لنا القديس أثناسيوس الرسولى هذه الكلمة فى كتابه عن حياة الأنبا أنطونيوس .

وفى انتصار الأنبا أنطونيوس وعدم خوفه ، ظل محتفظاً بتواضعه .

يشعر بضعفه ، يصرخ إلى الله ، فينقذه الله بقوته الإلهية .

قال الأنبا أنطونيوس : [فى إحدى المرات أبصرت فخاخ الشيطان مبسوطة على الأرض كلها . فقلت : يارب من يفلت منها ؟ فأجابنى الصوت قائلاً : « المتواضعون يفلتون منها »] .

٨ ـ ولعل من مظاهر التواضع العملى فى حياة الأنبا أنطونيوس ، **وعدم التشبث بفكره ، أنه كان يخطع لفكر الآخر ين أحياناً .**

ولا شك أن فى هذا إنتصاراً من الإنسان على نفسه ...
وسنضرب لهذا الأمر فى حياة قديسنا عدة أمثلة :

أ ـ إنه اقتنع بحياة الوحدة ومارسها ، وعاش ٣٠ سنة مغلقاً على نفسه لا يرى وجه إنسان ... وأخيراً إزدحم الناس على بابه ، مصر ين أن يفتح لهم ، وأن يصير لهم مرشداً . وكان ممكناً لهذا القديس أن يهرب من هؤلاء ، حتى لو فتح لهم ، وأن يتمسك بحياة الوحدة الكاملة التى أرادها لنفسه . ولكنه خضع لهم . وتحول من متوحد بالمعنى الكامل إلى متوحد ومعلم للوحدة . واضطر أيضاً أن يفتح بابه لكثير من الزائر ين . وغير شيئاً من أسلوب حياته . لأجل الناس . وقبل الوضع الذى أراده له ، وتنازل عما أراده لنفسه .

ب ـ فى إعتقاده أن الرهبنة موت عن العالم ، وبُعد عن العالم ، وحياة وحدة فى البرية . ولكن لما طلب إليه الآباء الأساقفة أن ينزل ليعلن رأيه فى الأريوسية ، خضع لهم ، ونزل إلى الإسكندرية ، وسط جماهير الشعب ، وقضى هناك ثلاثة أيام ، أكمل فيها الرسالة المطلوبة منه ، ثم عاد ملتمساً ديره ...

كان من النوع المطيع (المهاود) ، على الرغم من أنه فى نزوله وقتذاك كان فى حوالى المائة من عمره ...

جـ ـ ونزل قبل ذلك أيام الإستشهاد ، وكان يذهب إلى حيث محاكمة الشهداء وتعذيبهم ، ويشجعهم ويقويهم .

فى تواضعه ، انتصر على التطرف ، وعلى التحجر والجمود عند فكر معين . أعطاه التواضع مرونة وسهولة فى التعامل ...

٩ ـ وإنتصاره على التطرف ، جعله معتدلاً فى حياته ، يسير بافراز وحكمة ، سواء مع الناس ، أو مع نفسه أيضاً .

أ ـ قال عنه القديس الأنبا أثناسيوس ، إنه لما خرج من وحدته وحبسه لمقابلة الناس ، ما كان نحيفاً جداً بسبب النسك ، ولا كان بديناً مترهلاً بسبب قلة الحركة فى حبسه . إنما كان معتدلاً فى قامته ، لأنه كان يسلك فى وحدته باعتدال وعدم تطرف .

ب ـ وظل الإفراز من أولى الفضائل التى يحبها ، حتى أنهم حينما سألوه عن أهم الفضائل ، قال لهم الإفراز ، أى الفهم والتميز والحكمة فى التصرف ... وقال أن هناك من صاموا وصلوا وسكنوا البرية ، وهلكوا ، لأنهم تصرفوا بغير إفراز .

أما هذا القديس فقد كان يسلك بفهم وإتزان وحكمة وتمييز ، بعكس الرهبان الذين يتطرفون فى أى قانون من قوانين الرهبنة ، حتى يخرجهم تطرفهم ليس فقط عن مبادىء الحياة الرهبانية ، إنما أيضاً عن مبادىء السلوك الروحى عموماً ...

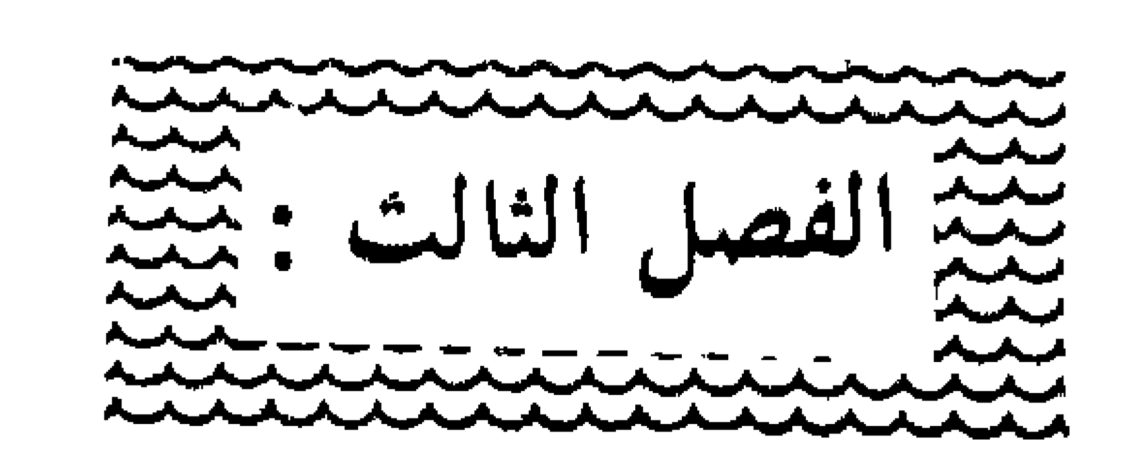
جـ ـ وفى انتصاره على التطرف ، انتصر على التزمت أيضاً :

ولذلك كان بشوشاً باستمرار ، وجهه يفيض بالسلام على الآخرين ، فاشتهى تلاميذه مجرد النظر إلى وجهه . وكان كل من ينظر إلى وجهه يمتلىء بالسلام .

وهكذا إنتصر القديس أنطونيوس على حرب الكآبة التى يقع فيها رهبان كثيرون ، ولا يوجدون أمامهم فى الكتاب المقدس سوى عبارة : « بكآبة الوجه يصلح القلب » ناسين الآيات التى تقول : « إفرحوا فى الرب كل حين » ، « فرحين فى الرجاء » ... فحياتهم فى الرهبنة كلها عبوسة ... !

أما الأنبا أنطونيوس ، فلم يكن هكذا . كان بشوشاً ولطيفاً . ومع ذلك فيه كل فضائل الرهبنة . يحيا فى وحدة وفى صمت . وإذا إلتقى بالناس ، يلتقى بهم فى سلام وحب ، يعطى فكرة عن المتدين السعيد بتدينه ، الذى تنظر إلى وجهه فتتعلم الهدوء والسلام والبشاشة والطمأنينة واللطف .

كان صاحب وجه مريح ...



الفصل الثالث :

القديس أنطونيوس أب لفكرة وطريق وأب لمنهج روحى جديد

القديس الأنبا أنطونيوس له فضائل وميزات عديدة ، لعلكم سمعتموها من قبل . لذلك أتحير فى كل سنة ، عن أى شىء أخاطبكم . ولكن لعل من الأشياء التى نذكرها فى مقدمة ميزات هذا الإنسان البار ، أنه أحد الأوائل .

أقصد أنه واحد من الذين شقوا طريقاً جديداً ، طريقاً صعباً وجميلاً ، لم يسبقه إليه أحد من قبل .

رهبان كثيرون ملأوا الدنيا آلاف وملايين . لكنه كان أول راهب فى العالم ، له مكانته ، لأنه أول من سار فى الطريق ، وأول من وضع نظامه وأسلوب حياته ، وأول من شرحه للناس وعرفهم به .

تماماً كما نقول مثلاً أن كثيرين كتبوا عن لاهوت السيد المسيح . لكننا نذكر القديس أثناسيوس الرسولى كأول لاهوتى كبير ، ألّف ، ورد على الأريوسية فى هذا المجال ...

وكثيرون كرزوا باسم السيد المسيح فى أرض مصر . لكننا نذكر إسم القديس مار مرقس ، لأنه أول من كرز فيها ، ولم يسبقه فى ذلك أحد من قبل .

إن الأوائل الذين بدأوا الطريق ، لهم مكانتهم .

كلنا ، إن سرنا فى طريق الرهبنة ، إنما نتبع آثار أقدام القديسين الأوائل ، وكما ساروا نسير . أما القديس الأنبا أنطونيوس ، فحينما شق طريقه فى الرهبنة لم تكن هناك أقدام سبقته فى هذا المجال من قبل .

إنه أب لطريق ، بل أب لأصعب طريق ، طريق الموت عن العالم ، طريق التجرد الكامل عن كل شىء .

وقد سار فى هذا الطريق وحده ، لما بدأ ...

عظمة الأنبا أنطونيوس ، أنه لم يوجد أحد يقوده ويرشده فى الرهبنة بل هو الذى قاد وأرشد الكل .

كل من يترهب حالياً ، آباء ومرشدين ، يشرحون له كيف يبدأ ، وكيف يتدرج وينمو . ويحكون له أسرار الحياة الرهبانية وأعماقها وطقسها ، ويظهرون له حروب وحيل الشياطين ، وكيفية الإنتصار عليها ... ويمسكون بيد هذا المبتدىء ، ويقودونه خطوة خطوة ، حتى يصل ...

أما الأنبا أنطونيوس فلم يجد له مرشداً ، وسار وحيداً .

يقول الكتاب : « إثنان خير من واحد لأنه إن وقع أحدهما ، يقيمه رفيقه . وويل لمن هو وحده إن وقع ، إذ ليس ثان ليقيمه » (جا ٤ : ٩ ، ١٠) .

وكان الأنبا أنطونيوس وحده ، ولكن لم يقع ...

سار وحده فى طريق الرهبنة ، بلا أب ، بلا مرشد ، بلا زملاء فى الطريق ، بلا تعزية من أى إنسان . بل أيضاً بدون الوسائط الروحية المتاحة للجميع ، بلا كنيسة ... بلا شىء يسنده فى الغربة والقفر والوحدة والحروب ... سوى إيمانه بأن الله معه .

ومع ذلك لم يستصعب الطريق ، بل سار وحده ، ومعه الله .

لهذا نحن نكرم الأنبا أنطونيوس ... وكل الذين يترهبون الآن ، مهما إرتفعوا ، لا يمكن أن يصلوا إلى درجة هذا القديس . فعلى الأقل الدفعة أتتهم من الخارج . هناك من تابعوهم فى حياتهم الروحية والنسكية ، حتى وصلوا ...

لكن الأنبا أنطونيوس ، أتته الدفعة الأولى من داخله .

ولما دخل إلى الرهبنة فى أيامه ، دخل إلى المجهول ...

سار فى طريق لا يعرف معالمه ، ولا يعرف حروبه .

حالياً توجد كتب للرهبنة ، يوجد بستان الرهبان ، والعديد من الكتب النسكية ، كتبها كبار الآباء عن الحياة الرهبانية ، وتوجد أيضاً سير الآباء المتوحدين والسواح . والذى لا يجد مرشداً ، يمكنه أن يتعلم من الكتب ...

أما فى وقت رهبنة الأنبا أنطونيوس ، فلم تكن هناك كتب .

إن سيرة هذا القديس ترد على الذين يبررون أنفسهم فى سقطاتهم ، معتذرين بأنهم لم يجدوا أب اعتراف ، ولا مرشداً روحياً ، ولا قدوات صالحة أمامهم . لذلك سقطوا ! هوذا الأنبا أنطونيوس لم يجد شيئاً من هذا كله ، ومع ذلك سار فى طريق الكمال بلا عثرة . وكان الرب يرشده .

إنه لم يكن أباً للرهبان فقط ، إنما أباً للرهبنة ذاتها .

هوذا الذى وضع أسسها وروحها ، وقدم للعالم صورته .

وإن أردنا أن نفهم ما هى الرهبنة فى أصولها ، إنما نرجع فى ذلك إلى الأنبا أنطونيوس ...

لذلك كانت حياته ذات تأثير عجيب ، اينما عرفت ...

كانت سيرته مسكاً ، لأنها كانت شيئاً جديداً على العالم ...

كانت حياته جديدة لم يعرفها العالم من قبل ...

لقد أعطى العالم صورة جديدة عن طقس فى الحياة لم يكن مألوفاً من قبل . فكان الناس يأتون من أقاصى الأرض ، لكى يروا هذه الحياة الجديدة ، وهذا الإنسان العجيب ، الذى يسكن الجبال والمغاير والبرية القفرة ، وتمر عليه ثلاثون سنة لا يرى فيها وجه إنسان ، ومع ذلك فهو سعيد فى وحدته وعزلته ونسكه ...

كان أعجوبة فى عصره . مجرد النظر إليه كان يُفرح القلب ...

كما قال أحد تلاميذه : [يكفينى مجرد النظر إلى وجهك يا أبى] . وكثيرون أحبوا الرهبنة لمجرد النظر إلى وجهه ، واشتهوا أن يحيوا نفس حياته التى أُعجبوا بها ...

لقد كانت حياته ، فى صمت ، عظة جذبت إليه الكثيرين .

كانت حياة جديدة . لم تكن هروباً من العالم ...

الأنبا أنطونيوس ، كان شاباً غنياً ، وكان العالم منفتحاً أمامه . كان يملك ثلاثمائة فدان من أجود الأطيان فى الصعيد ، وكان أبوه ذا مركز وسلطان ، ويستطيع أن يرث أباه فى المركز والكرامة . إن الدنيا لم تضق فى وجهه ليهرب منها . فلماذا إذن تركها ؟

إنه لم يهرب من العالم ، بل إرتفع فوق مستوى العالم وكان هذا هو سر عظمته ، وسر اعجاب الناس به ...

لقد ارتفع فوق مستوى الأطيان ، وفوق مستوى الغنى ، وفوق مستوى السلطة ، بل فوق مستوى العالم كله ، بكل شهواته . وشعر أن العالم كله ليست له قيمة ...

وأعطى للناس درساً عملياً فى تفاهة العالم ، كما أعطاهم درساً مقابلاً فى إهتمام الإنسان بأبديته ، قبل كل شيء .

وفيما كان الناس يتنافسون على ملاذ العالم وعظمته ، وجدوا إنساناً يرتفع فوق هذا المستوى كله ، و ينظر إلى شهواتهم كتفاهات ، ويحمل عصاه فى يده ، و يضرب بقدمه فى البر ية ، خارجاً من العالم بارادته ، واهباً كل أمواله للفقراء ، لكى يحيا حياة الفقر الاختيارى ... مع الله .

وكان هذا شيئاً جديداً على الناس .

وكان جديداً عليهم أيضاً أن يسكن فى مقبرة ...

ومهما ضربته الشياطين فيها ، وأخافته بكل طرق الرعب ، يظل باقياً متحدياً قوة الشياطين ، قائلاً لهم : [... وإن كان الله لم يعطكم سلطاناً عليَّ ، فلن يستطيع أحد منكم أن يؤذيني] ...

إنسان يظهر له الشياطين بهيئة أسود وفهود ونمور ، و بأصوات مفزعة ، يحاربونه لكيما يخاف و يرجع . ولكنه يصمد .

إنه فوق مستواهم ، وفوق مستوى مقدرتهم وسلطانهم ...

لقد إرتفع فوق مستوى الخوف ، لا فى المقبرة ، ولا فى الوحدة . لم يخف الشياطين ، فخافت منه الشياطين ...

وكان هذا شيئاً جديداً على الناس ، أذهلهم واستهواهم .

من هذا الذى يعيش فى أعماق الجبل وحده ، حيث الوحوش والحيات ودبيب الأرض ، وحيث العزلة المخيفة ، والوحدة المملة ، وحيث حروب الشياطين ؟! ومع ذلك فهو لا يخاف ، ولا يمل ، بل يحيا سعيداً ، مفضلاً هذه الحياة على كل ملاذ العالم ... !

رجل له قلب من حديد . دخل البرية ليس فقط بالنسك والزهد والصلاة ، وإنما أيضاً بشجاعة عجيبة .

إنه نوعية جديدة من الناس ، لم يرها البشر من قبل .

أغلق على نفسه مغارة ثلاثين سنة ، لا يستقبل أحداً . وكان الناس يقرعون على بابه ، و يتركون له بعض الحبوب والبذور ، ويمضون لشأنهم ... وأخيراً لم يحتمل الناس البعد عنه . كان وراء هذا المجهول شيء يستهويهم .

كان وراء بابه المغلق شيء يجذبهم ...

فظلوا يقرعون بابه . ولما لم يفتح لهم ، كسروا الباب ودخلوا ، وقالوا له : نريد أن نعيش معك ، ونحيا الحياة التى تحياها ، بأية طريقة ، نبقى معك تحت ظل صلواتك .

استهوتهم هذه الحياة المرتفعة عن مستوى العالم .

واستهواهم هذا القلب ، الذى يحيا وحده ، مكتفياً بالله ...

هذا القلب ، الذى لا يحتاج إلى عزاء الناس ، لأن عزاء الله يكفيه ... والذى لا يحتاج إلى أحاديث الناس ، لأن الحديث مع الله يشبعه . استهوتهم حياته كلها ، فبقوا معه ...

هذه هى عظمة الأنبا أنطونيوس . لم يكن سرها إرتفاعه فى فضائل معينة كأن يصوى بعض الأيام صوماً كالقديس الأنبا بيشوى مثلاً ، أو يدخل فى تدريب صلب العقل كالقديس مقاريوس الإسكندرى ، كلا بل كان لعظمته سبب آخر :

سر عظمته ، أنه إكتشف طريقاً ، ما كان الناس يعرفونه قبلاً . وأحب الناس هذا الطريق ، وأحبوا الأنبا أنطونيوس معه .

كانت للأنبا أنطونيوس فضائل كثيرة . فكان مشهوراً بإتضاعه ، وبصلاته ، ومعرفته وإفرازه وزهده . ولكن ما أكثر من إتصفوا بهذه الصفات . أما الذى ينفرد به هذا القديس عن الجميع ، فهو قيادته لطريق الرهبنة الروحى .

فى فترة حديثة ، كان البعض يتشاجرون و يصيحون قائلين :

« لا بد من أن يكون البطريرك من الرهبان ... ! »

أما فى أيام الأنبا أنطونيوس ، فلم يكن البطاركة من الرهبان .

كانت الرهبنة طقساً روحياً ، أعلى من عمل الرعاية ، حقاً لم تكن أعظم من الكهنوت ورئاسته ، وإنما كانت حياة أجمل ، هى الأقرب إلى حياة الملائكة ... من من الآباء كان يقبل أن يترك جمال الرهبنة و يصير بطر يركاً ؟!

عاش الأنبا أنطونيوس ١٠٥ سنة ، وعاصر بطاركة عديدين . ولم يصير من الآباء البطاركة ، بل شماس من تلاميذه ، هو الأنبا أثناسيوس صار بطر يركاً . و بقى الأنبا أنطونيوس فى حياته الروحية الحلوة . بكل عمقها ، وكل إرتفاعها .

ساعة واحدة يقضيها مع الله ، يمكن أن تنفع الكنيسة أكثر من جهاد سنوات وشهور فى عمل الرعاية ...

لما إنتشرت البدعة الأر يوسية ، وصارت خطراً على الكنيسة ، وظل القديس أثناسيوس يقاومها بالآيات والتفسير ، و بالجدال اللاهوتى والحوار المنطقى ، أرسل الآباء الأساقفة إلى القديس الأنبا أنطونيوس ، لكى ينزل إلى الاسكندر ية . لا للجدل اللاهوتى ، فما كان رجل جدال ، إنما من أجل تأثير روح الله الذى فيه . فنزل القديس ، وكان عمره حوالى المائة عاماً . وقضى فى الاسكندر ية ثلاثة أيام كان لها تأثير عجيب عميق فى الناس .

يكفى أن يسمعوا من فمه الطاهر أن الإبن مساو للآب فى الجوهر... كلمة يقولها بلا جدال ، تسندها حياته المملوءة قدساً المحبوبة من جميع الناس ، تذكرنا بقول قائد المائة للرب : « قل كلمة فقط ، فيبرأ غلامى » . وكان الناس ينتظرون من الأنبا أنطونيوس أن يقول كلمة فقط . فقال وأحدثت الكلمة تأثيرها .

القديس الذى كان مرعباً للشياطين ، أما كان مرعباً للهراطقة ؟!

و بعد ذلك تقول سيرة القديس ، أنه عاد إلى ديره ، كغر يب يلتمس وطنه . حقاً كان العالم غر يباً عليه ... غر يباً على رجل الجبال والبرارى والوحدة ... وأبى الرهبنة الأصلية .

وصدقونى أن كلمة (رهبنة) ترجمة غير سليمة لحياة الوحدة .

إن كانت مأخوذة من عبارة : يرهب الله أى يخافه ، فالقديس الأنبا أنطونيوس

نفسه قال لأولاده : [أنا لا أخاف الله . ذلك لأنى أحبه ، والمحبة تطرح الخوف إلى خارج] (١ يو ٤ : ١٨) . فبماذا نسمى الرهبنة التى قادها الأنبا أنطونيوس ؟

الرهبنة هى حياة الملائكة الأرضيين أو البشر السمائيين .

الرهبان بشر يحيون حياة الملائكة ، وهم على الأرض . وقد كان القديس الأنبا أنطونيوس هو أول الملائكة الأرضيين .

لى يا إخوتى مقر فى دير الأنبا بيشوى ، أقضى فيه نصف أو ثلث كل أسبوع . وفى أعلى هذا المقر ، لى كنيسة خاصة أسميتها : « كنيسة الملاك ميخائيل والأنبا أنطونيوس » ، على إعتبار أن الملاك ميخائيل هو رئيس الملائكة السمائيين ، والأنبا أنطونيوس هو رئيس الملائكة الأرضيين .

غير أن الأنبا أنطونيوس يتميز على الملاك ميخائيل بميزتين :

- **الأولى أن الملاك ميخائيل ، خلقه الله هكذا ، ملاكاً ...**

أما الأنبا أنطونيوس . فقد ولدته أمه إنساناً . ولكنه تحول بسيرته الطاهرة إلى ملاك ، وأصبح فى مقدمة الملائكة الأرضيين .

- **والميزة الثانية أن الأنبا أنطونيوس ولد على الأرض ، وإستطاع أن يحول الأرض إلى سماء ، والرهبان إلى كواكب ، فسموه : « كوكب البرية » وسموا « تلاميذه كواكب البرية » ...**

لقد إكتشف الأنبا أنطونيوس أن الدنيا لا تساوى شيئاً . وهذا الإكتشاف عرفه قبله إثنان ، وبقيا يعملان فى الدنيا .

أولهما سليمان الحكيم ، الذى قال أن الكل باطل وقبض الريح ، ولا منفعة تحت الشمس (جا ٢ : ١١) . ومع ذلك بقى سليمان حياته كلها يعيش وسط هذا الباطل .

والرجل الثانى هو القديس بولس الرسول ، الذى قال : « خسرت كل الأشياء ، وأنا أحسبها نفاية ، لكى أربح المسيح » (فى ٣ : ٨) . ومع أنه عرف أنها نفاية ، بقى فى الدنيا من أجلنا ، يخدم ، لأنه إئتمن على وكالة . وهكذا عاش فى الدنيا ، ولم يعش فى نفايتها .

سليمان بقى فى العالم كملك ، و بولس بقى كرسول .

أما الأنبا أنطونيوس ، فلم يبق فى العالم ، ولو للخدمة .

إرتفع فوق مستوى الخدمة الأرضية التى كانت لسليمان ، وفوق مستوى الخدمة الرعوية التى كانت لبولس . وعاش فى الخدمة الملائكية التى كانت لطقس السارافيم .
وقدم لنا هذه الحياة نموذجاً لطقس الملائكة الأرضيين .

كل راهب فى الدنيا يعتبر نفسه إبناً للقديس الأنبا أنطونيوس ، ليس الأقباط فقط ، إنما الكاثوليك أيضاً ، وكل الأرثوذكس شرقيين وغربيين ، وكل محبى الوحدة فى العالم ... الكل يشتركون معاً فى محبته ، وفى إكرامه ، وفى البنوة له .
لقد قدم للعالم كله حياة التأمل والصلاة ، حياة الوحدة والسكون ، حياة الزهد والتفرغ الكامل لله ...

قدم لنا حياة جديدة ، لا تستمد عظمتها من الخارج .

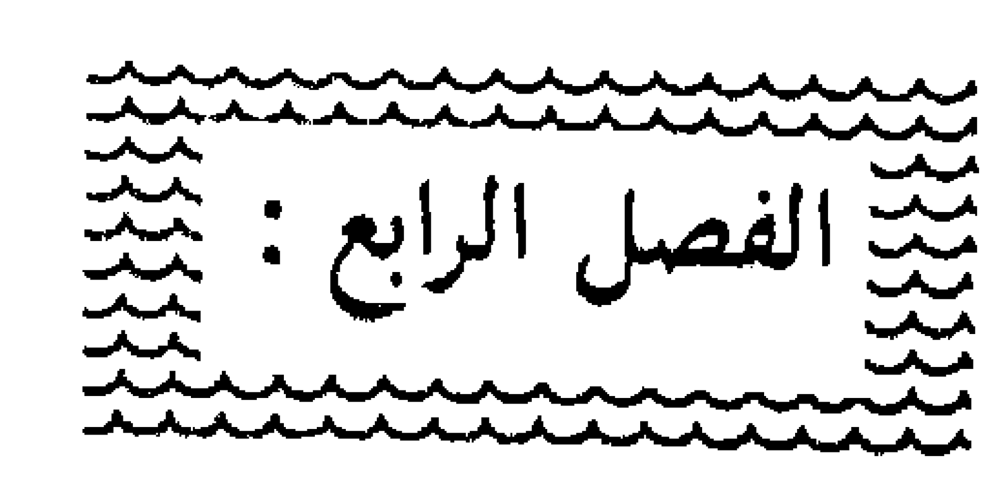
لا تستمد عظمتها من الألقاب ، ولا من الجاه والسلطان ، ولا من الوظائف ، ولا من الكهنوت ، ولا من الرعاية ، ولا من العلم والجدل والمعرفة . إنما تستمد عمقها من الداخل ، من الصلة الدائمة بالله ، فى حياة الروح .
هذا هو المنهج الجديد الذى قدمه الأنبا أنطونيوس . ونحن نكرمه كأب لهذا المنهج ، ونقول :

مبارك هو الرب الذى منحنا الأنبا أنطونيوس .

وفتح لنا به باباً للسمائيات ، وقدس أقداس وسط الجبال ...

وقدس لنا رمل البرية ، وتلالها ، ومغائرها . وصارت مغارة الأنبا أنطونيوس مزاراً يتبارك به الناس من كل أنحاء العالم ، ليروا مكاناً حل الله فيه ، مرافقاً للأنبا أنطونيوس ومباركاً له .

ونشكر الله لأن الأنبا أنطونيوس قبل أن يقود الرهبنة . لم يصر أن يحيا وحده كالأنبا بولا ، فى عزلة كاملة عن العالم ، يقضى حياته كلها لا يرى وجه إنسان ...
مبارك هو اليوم الذى قبل فيه الأنبا أنطونيوس ، أن يرشد آخرين ، و يعلمهم هذا الطريق الملائكى الذى إختبره .


الفصل الرابع :

القديس أنطونيوس كمعلم وطالب علم

الأنبا أنطونيوس المعلم

كثيرون ترهبوا . وكثيرون كانوا قديسين ، وسواحاً ، ومتوحدين ، ولم ينالوا شهرة الأنبا أنطونيوس .

الأنبا بولا السائح مثلا ، ترهب قبل الأنبا أنطونيوس . وفى لقاء هذين القديسين ، كان الأنبا بولا يخاطب الأنبا أنطونيوس بعبارة يا إبنى ، فيرد عليه بعبارة يا أبى . كان الأنبا بولا أكبر منه سناً ، وأقدم منه فى هذه السيرة الملائكية . ولكنه لم ينل نفس الشهرة ، لأنه لم يكن مثل الأنبا أنطونيوس أباً لرهبان كثيرين . ولم يكن مثله أباً لمدرسة من المدارس ...

كان الأنبا أنطونيوس أباً لرهبنة . كان أباً لمدرسة رهبانية ، لأول مدرسة رهبانية . وكان أباً لفكرة معينة إنتشرت فى كل مكان ...

إنه لم يتزوج ، ولم ينجب إبناً . لكن له مئات الآلاف من الأبناء . له أبناء فى كل بلد من بلاد العالم . كل رهبان العالم أولاد الأنبا أنطونيوس .

إنظروا كم قرناً مرت على العالم منذ رهبنة الأنبا أنطونيوس (١٧ قرناً) وكم راهباً ترهب فى كل بلاد العالم ، وطوال تلك القرون ... هؤلاء جميعاً هم أبناء الأنبا أنطونيوس .

عندما يدخل الأنبا أنطونيوس إلى الملكوت ، يقول لله : « هأنذا والأولاد الذين أعطانيهم الرب » (إش ٨ : ١٨) ، يدخل وراءه من أولاده ألوف ألوف ، وربوات ربوات ... لأنه أب لمدرسة .

تتلمذ عليه تقريباً كل قادة الرهبنة فى مصر :

فمثلاً كان من تلاميذه الأنبا آمون أبو جبل نتريا ، أبو منطقة القلالى . وقد رأى **الأنبا أنطونيوس** روح الأنبا آمون وهى صاعدة إلى السماء ، تزفها الملائكة فى فرح ...

وكان من تلاميذه أيضاً ، القديس الأنبا مكاريوس الكبير ، أتى وتتلمذ عليه وألبسه الأنبا أنطونيوس إسكيم الرهبنة . وإشتغل معه ، وشهد له بقوله : [إن قوة عظيمة تخرج من هاتين اليدين] ...

وتتلمذ عليه الأنبا بيشوى ، أو الأنبا سيصوى من آباء الجبل الشرقى ، هو وتلاميذه . وتتلمذ عليه القديس الأنبا بولس البسيط ، والأنبا بيساريون ، والأنبا سرابيون .

وتتلمذ عليه القديس الأنبا ببنوده رئيس أديرة الفيوم . وقد كتب إليه القديس **الأنبا أنطونيوس** رسالته العشرين .

وتتلمذ عليه القديس الأنبا إيلاريون الذى نشر الرهبنة فى سوريا وفى فلسطين .

وعندما كان يأتى إلى الأنبا أنطونيوس أحد من تلك المناطق يطلب إرشاده ، كان **يقول لهم فى إتضاع** : [لماذا تأتون إلىَّ ، وعندكم الأنبا إيلاريون ؟] .

وتتلمذ عليه شيوخ عديدون إنتشروا فى الأرض كلها ...
ونشروا الرهبنة فى كل مكان ... وأصبح الأنبا أنطونيوس أباً لفكرة ، ولمدرسة ، **ولطريق** حياة ، أباً لمنهج روحى له فروعه فى كل مكان ...

وأطال الله عمر الأنبا أنطونيوس ...

ولد سنة ٢٥١ م ، ورقد فى الرب سنة ٣٥٦ م . وله من العمر ١٠٥ سنة شيخاً كبيراً فى الأيام ...
العجيب أن الأنبا أنطونيوس لم يتتلمذ عليه رهبان فقط ...

إنما تتلمذ عليه أيضاً البابا البطريرك ...

كان القديس الأنبا أثناسيوس الرسولى البابا العشرون من تلاميذه . درس عليه الروحيات . تلقى عنه أيضاً كثيراً من أفكاره اللاهوتية ...

إن بعض العلماء ، حينما يدرسون فكرة أثناسيوس اللاهوتية ، إنما يرجعون كثيراً من أفكاره اللاهوتية إلى القديس أنطونيوس الكبير .

حقاً إن هذا لعجيب ...

والقديس أنطونيوس تتلمذ عليه كثيرون لم يروا وجهه أبداً ...

لقد تتلمذوا على حياته ، على سيرته التى نشرها فى الغرب القديس أثناسيوس الرسولى فى كتابه : (حياة أنطونيوس) . وهذا الكتاب كان سبباً فى إنتشار الرهبنة فى روما وفى بلاد الغرب . فترهب كثيرون هناك وأتى العديد منهم إلى مصر ، لمجرد أنهم تنسموا حياة القديس الأنبا أنطونيوس .

وكان لهذا الكتاب تأثيره فى هداية أوغسطينوس ...

لقد تأثر أوغسطينوس تأثيراً عميقاً بسيرة القديس أنطونيوس ، فتاب ، وترك حياة الفجور ، بل صار راهباً وقديساً ... ومصدراً من مصادر الحياة التأملية فى العالم ... بفضل سيرة الأنبا أنطونيوس .

والقديس الأنبا أثناسيوس الرسولى ، كاتب هذه السيرة ، حينما كان يذهب إلى أى مكان من بلاد أوربا ، كانوا يسألونه عن أنطونيوس ، وعن أخبار الرهبنة فى مصر ، وعن الرائحة الزكية التى تفوح من البرية ... وهكذا كان للأنبا أنطونيوس تأثير فى أمكنة عديدة جداً لا توضع تحت حصر .

وكثيرون كانوا يأتون من بلاد الشرق والغرب ، لكى يتتلمذوا على القديس الأنبا أنطونيوس فى التدبير الرهبانى .

وكان بعض الفلاسفة يأتون إليه ، ويسألونه ، ويحاورونه ، ويندهشون كثيراً من علمه ومن ذكائه ...

لدرجة أنهم قالوا له فى إحدى المرات : [أنت لا تملك الكتب ، ولا تقرأ الكتب ، فمن أين لك هذه المعرفة وهذا الفهم العجيب ؟] ...

فأجابهم بسؤال عجيب : [أيهما أسبق : العقل أم المعرفة ؟ فلما قالوا له : العقل

طبعاً أسبق ، أجابهم : إذن المعرفة يمكن أن يلدها العقل ، بدون كتب ...] !

وكان يقول : [أنا إن أردت معرفة شيء ، أصلى إلى الله ، فيكشف لى ، وأتأمل فى آيات الكتاب ، فأفهم منها . فلا حاجة بى إلى الكتب] .

وكما أن الناس كانوا يأتون من مشارق الدنيا ومغاربها إلى الأنبا أنطونيوس ، يطلبون منه كلمة منفعة ، يجعلونها دستوراً لحياتهم .

كذلك فإن الامبراطور قسطنطين الكبير أرسل إليه رسالة ، يطلب منه فيها بركاته وصلواته . ولما لم يقرأ القديس هذه الرسالة لتوه . تعجب تلاميذه . فقال لهم : [لا تتعجبوا من هذا ، بل تعجبوا بالأكثر أن الله يرسل لنا الرسائل كل يوم فى كتابه المقدس ، ونحن لا نسرع إلى قراءتها]... !

محاربته للأريوسية :

كان الأنبا أنطونيوس فى نظر الناس نبعاً كبيراً للقداسة ، ومعلماً كبيراً للروحيات ...

وكانت كل كلمة تخرج من فمه هى كلمة ثقة وصدق :

لدرجة أنه عندما إنتشرت الأريوسية فى الإسكندرية ، نتيجة للشكوك العنيفة التى أثارها الأريوسيون ضد لاهوت السيد المسيح ، طلب الآباء الأساقفة من القديس أنطونيوس أن ينزل لكى يقول كلمة فيسند بها تعليم البابا أثناسيوس الرسولى ...

ونزل الأنبا أنطونيوس ، إلى الإسكندرية ، وهو فوق المائة من عمره ، وقضى ثلاثة أيام ، فيها ثبت الناس فى الإيمان .

ويقول المؤرخون أن الأيام الثلاثة التى قضاها الأنبا أنطونيوس فى الاسكندرية كان لها مفعول السحر فى الناس ... وكانت أكثر دسماً من سنوات عديدة فى التعليم ...

كانت كلمة التعليم تخرج من فم الأنبا أنطونيوس ، تسندها قداسة سيرته ، وتسندها المعجزات ، وتسندها ثقة الناس به ...

إنه رجل الله . فكل ما يقوله هو كلام من الله .

إن الشخص العادى حينما يتكلم ، ربما يحتاج إلى أدلة كثيرة ، وإثباتات و براهين كثيرة لكى يقنع الناس . أما الإنسان القديس ، الذى يشهد له الله بآيات ومعجزات ، الإنسان القديس الذى هو موضع ثقة الناس بروحياته . فيكفى أن يقول كلمة ...

لا يلزمه أن يبرهن كثيراً و يثبت ، أو أن يتعب نفسه فى النقاش ... يكفى أن يقول كلمة و ينتهى الأمر...

هكذا كانت كل كلمة للأنبا أنطونيوس ... لها ثقل عجيب !

وكان الأنبا أنطونيوس يعلم ، ليس فقط بالكلام ، وإنما أيضاً بالرسائل . وله عشرون رسالة ، أرسلها إلى أولاده .

ترجمت هذه الرسائل إلى العربية ، وهى موجودة فى مخطوطاتنا فى الأديرة ، آخرها رسالته إلى تلميذه ببنوده .

وقد طبع البعض هذه الرسائل ونشرها .

وكانت موضع دراسة لعلماء كثيرين .

وللقديس أنطونيوس تعاليم كثيرة ضمنها بستان الرهبان :

خاصة بنصائحه إلى أبنائه الرهبان ، فى النسك والروحيات ...

وله سيرته وحياته المقدسة التى كان يتغذى بها الناس .

وتعاليمه كانت إما فى كلمات قليلة يرد بها ... أو فى عظات طويلة كما فى رسالته ، وفى سيرته :

وله فى كتاب سيرته التى وضعها القديس الأنبا أثناسيوس ، عظة طويلة قالها عن ضعف الشياطين ، وإنه ليست لهم القدرة الخيالية التى يخشاها الناس لذلك لا داعى أبداً لأن يخافهم الناس و يرتعبوا منهم ... إنها عظة طويلة ...

وكلمات الأنبا أنطونيوس كان لها تأثيرها ، ليس فى الأشخاص العاديين فقط إنما أيضاً فى شيوخ الرهبنة وقادتها ومرشديها . كانوا جميعاً يعرفون أنه يتكلم بالروح القدس .

ولم تكن كلماته فقط نافعة للتعليم ، أو سيرة حياته فقط نافعة للتعليم ، وإنما حتى مجرد ملامح وجهه ...

زاره مرة ثلاثة من الرهبان ، أخذ إثنان منهم يسألانه عن بعض أمور . أما الثالث فبقى صامتاً . فسأله الأنبا أنطونيوس ، لماذا لا يطلب شيئاً مثل زميليه ؟ فأجاب : يكفينى مجرد النظر إلى وجهك يا أبى ...

وقد قال القديس أثناسيوس عن الأنبا أنطونيوس : [من من الناس كان مضطرب القلب أو مر النفس ، و يرى وجه الأنبا أنطونيوس ، إلاً ويمتلىء بالسلام ...] .

لعله كان أيضاً من مصادر السلام بالنسبة إلى الأنبا أثناسيوس نفسه فى وسط ضيقاته الكثيرة .

وكان الأنبا أنطونيوس يحب الإفراز ، أى الحكمة والتميز والمعرفة :

ففى إحدى المرات سأله أولاده عن الفضيلة العظمى فى الرهبنة . فقال لهم : إنها الإفراز ، لأن كثيرين صاموا ، وأضروا أنفسهم بصومهم . وكثيرين صلوا وفشلوا فى صلواتهم ، بسبب عدم الإفراز . وله عظة عن الإفراز فى بستان الرهبان .

ذلك لأن الشخص الذى يقتنى الإفراز والتميز ، يستطيع أن يميز بين النافع والضار واللائق وغير اللائق . لذلك إهتم الأنبا أنطونيوس بفضيلة الإفراز . وهو أيضاً كانت له هذه الفضيلة .

ولم يكن يفرح بالآراء بقدر ما كان يفرح بالعمل الروحى الفاضل ، وبخاصة الباطنى منه .

فى إحدى المرات زاره بعض الرهبان ، وسألهم رأيهم فى تفسير آية معينة ، فأبدى كل منهم وجهة نظره . وكان الأنبا يوسف معهم فبقى صامتاً . فسأله القديس الأنبا أنطونيوس عن رأيه فى تفسير الآية ، فأجاب : صدقنى يا أبى أنى لا أعرف .

وهنا قال له الأنبا أنطونيوس : [طوباك يا أنبا يوسف ، لأنك عرفت الطريق إلى كلمة لا أعرف] ...

الأنبا أنطونيوس كتلميذ يتعلم

مصادر معرفته :

ما مصادر المعرفة عند الأنبا أنطونيوس ؟

ومن إستقى تعليمه ؟

فلا يمكن لشخص أن يرتقى إلى رتبة التعليم ، ما لم يتعلم أولاً و يتتلمذ و يفهم . فأين تتلمذ القديس الأنبا أنطونيوس ؟ وعلى يد من ؟

كان الأنبا أنطونيوس يطلب المعرفة من كل مصدر :

وكانت هذه هي الصفة الأولى فى تلمذته ...

يطلب العلم من كل مصادره . لا يتعلم فقط من الأساتذة الكبار ، وإنما من كل شيء ، ومن كل أحد ، ومن كل حادث ، ومن كل شخص حتى لو كان خاطئاً ...

● أول درس له ، تعلمه من إنسان ميت :

وعجيب أن يتلقى أول درس له فى الرهبنة ، لا من إنسان حى ، إنما من شخص ميت . وكان هذا الميت هو أبوه ...

لما مات أبوه ، نظر إلى جثمانه المسجى ، وتعلم من هذا الموت شيئاً ... نظر إلى أبيه الميت ، الذى كان يملك ثلاثمائة فدان من أجود أطيان قمن العروس ببنى سويف ، وكان له غنى ونفوذ بين مواطنيه ، وقال له :

[أين هى قوتك وعظمتك وسلطانك ؟ أنت خرجت من العالم بغير إرادتك . ولكننى سأخرج منه بإرادتى ، قبل أن يخرجونى كارهاً] .

وهكذا تلقى أول درس فى الموت عن العالم .

تأمل فى ذلك الرجل الغنى العظيم ، الذى كان يملأ الدنيا قوة وسلطة ، وهو الآن بلا حراك ، لا يملك حتى التصرف فى جسده !

● أما الدرس الثانى ، فأخذه من الإنجيل ...

والأنبا أنطونيوس كان يسمع كلام الله فى عمق ، وكان جاداً فى سماعه . وكل كلمة يسمعها ، كان يعتبر أنها موجهة إليه شخصياً ... فنى إحدى المرات ـ وهو فى الكينسة ـ سمع قول الرب للشاب الغنى : « إن أردت أن تكون كاملاً ، إذهب بع كل مالك وأعطه للفقراء ، وتعال إتبعنى » .

وكان أول من سمع هذا الكلام الإلهى شاباً غنياً مثله سمع ومضى حزيناً مع أنه سمع هذه الآية من فم الرب يسوع المسيح نفسه ، من صوت السيد المسيح المملوء تأثيراً وعمقاً وروحانية . ولكنه لم يتأثر ولم ينفذ ، لأن محبة المال كانت فى قلبه .

أما الأنبا أنطونيوس ، فلما سمع هذه العبارة ، وكان هو أيضاً شاباً غنياً ، لم يمض حزيناً ، وإنما مضى وباع ما له فعلاً ، وأعطاه للفقراء . أخذ الأمر الإلهى بطريقة جدية ، لأنه كان يسير فى حياته بهذا الأسلوب الجدى ...

ولما بدأ يدبر الأمور ، ويفكر كيف يصرف هذا المال ، وكيف يدبر أيضاً مستقبل أخته ، مضى إلى الكنيسة فسمع قول الرب : « لا تهتموا بما للغد » . فأعتبر هذا الكلام أيضاً موجهاً إليه هو بالذات ، وأسرع فى الخروج من العالم .

بينما فى أيامه ، لم تكن هناك رهبنة بالمفهوم الحالى ، والنظام الحالى ، لأنه هو أول الرهبان .

كم من مرة نسمع نحن هذه الآيات تقرأ علينا فى الكنيسة ، ولا نتأثر ونعمل مثلما تأثر بها الأنبا أنطونيوس وعمل ... !

ولكنه كان إنساناً يود أن يستفيد ، ويعتبر أن كلام الله للعمل ، وليس لمجرد السماع والمتعة الروحية به .

كان جاداً فى سماعه ، يحول كلام الله إلى حياة .

كان يعمل بقول الرب : « الكلام الذى أقوله لكم ، هو روح وحياة » . فكان يفهم الروح الذى فى الكلام ، ويحوله إلى حياة ...

لقد تعلم درسه الأول فى الرهبنة من موت أبيه .

وتعلم درسه الثانى من آيات الإنجيل التى سمعها .

فمن تعلم درسه الثالث إذن ؟

تعلم درسه الثالث من القدوة الحسنة ...

كان هناك بعض النساك يعيشون على حافة القرى . ففى أول خروج الأنبا أنطونيوس تعلم من هؤلاء النساك . ولم يشأ أن يكون مقلداً لشخص معين منهم ، وإنما أخذ من كل واحد شيئاً : كان يتعلم من هذا الهدوء ، ومن ذاك الوداعة والإتضاع ، ومن ثالث الصمت ، ومن رابع المداومة على الصلاة ، ومن خامس النسك ، ومن سادس السهر...

كان يبحث عن الشيء الفاضل فى أى إنسان يقابله ، و يتعلمه منه ، دون أن يكون صورة طبق الأصل لشخص واحد بالذات .

• أما الدرس الرابع ، الكبير ، فتعلمه من إمرأة مستهترة ...

كان متوحداً إلى جوار النهر ، وإذا بإمرأة لا حياء لها ، قد جاءت إلى حيث كان ساكناً يتعبد . وبدأت تخلع ملابسها ، لتنزل إلى البحر لتستحم أمامه ، وهى لا تخجل ! أما هو فقد خجل ، وأنبها قائلاً : [يا إمرأة أما تستحين أن تتعرى أمامى وأنا رجل راهب ؟!] فاجابته : [لو كنت راهباً ، لدخلت إلى الجبل فى البر ية الجوانية ، لأن هذا المكان لا يصلح لسكنى الراهبان] ! قالت ذلك ، وهى تضحك منه باستهزاء ... !

أما الأنبا أنطونيوس ، فأخذ كلمة الإستهزاء هذه ، بجدية ، وقال : [حقاً هذا صوت الله لى على فم هذه المرأة] .

وقام فعلاً ، وترك ذلك المكان ، شاعراً أنه لا يناسبه فعلاً كراهب ، ودخل أعماق الجبل ، وكان دخوله بركة للعالم ... حتى كلمة الإستهزاء والتهكم التى سمعها ، أخذها بعمق وروحانية وتنفيذ . ولم يغضب بسببها ، إنما إنتفع روحياً ...

ويبدو أن نساء شريرات كثيرات ، كن على غير قصد منهن ، سبب بركة وتعليم لكثير من القديسين :

وكما يقول الكتاب أن الله يخرج من الجافى حلاوة (قض ١٤ : ١٤) .

+ وقد رأينا كيف أن الأنبا أنطونيوس إنتفع روحياً من كلمة قالتها إمرأة لا تستحى من أن تتعرى أمامه .

+ والقديس مقاريوس الكبير ، كان سبب دخوله إلى البرية أيضاً ، إمرأة أخطأت

مع شاب ، وحملت منه ، ولما إنكشف أمرها إتهمت هذا القديس المتوحد ظلماً . فأتى أهلها وأهانوه أشد اهانة وكلفوه بالعناية بها ، ولما حان موعد ولادتها لإبنها ، تعسرت ولادتها جداً . وكادت تموت ، فاعترفت بخطيئتها وظلمها لهذا القديس ، فأتى الناس ليعتذروا إليه ، فهرب من المجد الباطل ، وترك تعبده على حافة القرية ، ودخل إلى البرية .

+ إمرأة خاطئة أخرى ، قابلت القديس مار أفرام السرياني ، والظاهر أنه كان جميل الصورة جداً ، فأخذت تتأمل جمال وجهه ، وثبتت عينيها على وجهه ، فخجل ولامها على ذلك ، فقالت له .

[أنا إمرأة ، فى الأصل مأخوذة من رجل ، فمن الطبيعى أن أنظر إليك . أما أنت فرجل مأخوذ فى الأصل من تراب ، كان ينبغى أن تنظر إلى التراب الذى أُخذت منه] ...

فإنتفع القديس مار أفرايم ، وجعل وجهه فى الأرض ، وتركها ومضى ، واستفاد من عدم حيائها ...

وطبعاً لا يجوز أن تفعل النساء هكذا ، معتمدات على منطق هذه المرأة ! فإنها إمرأة خاطئة ، وليست مثالاً .

عموماً ، إن الشخص الذى يريد أن يستفيد روحياً يمكنه أن يتخذ كل مصدر لفائدته ، حتى المرأة الخاطئة . وكما يقول الكتاب : « كل شىء طاهر للطاهرين » (تى ١ : ١٥) .

إن ربنا يسوع المسيح علمنا أن نستفيد دروساً روحية ، من تأملنا لزنابق الحقل التى تلبس أعظم من سليمان فى كل مجده ، ومن طيور السماء التى لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن ، وأبونا السماوى يقوتها .

ولقد أعطانا دروساً ، من الزارع والبذار ، ومن الحنطة والزوان ، ومن الشباك والصيد ، ومن الخميرة ، ومن الإبن الضال .

لأن من أراد أن ينتفع ، يمكنه أن ينتفع .

ومن له أذنان للسمع ، سيسمع ما يقوله الروح للكنائس .

وعلى رأى أحد الآباء الروحيين ، الذى قال : [تعلمت الصمت من الببغاء] . أى أننى لما رأيت تفاهة الثرثرة ، تعلمت الصمت .

لقد تعلم القديس الأنبا أنطونيوس دروسه الأربعة : من جسد إنسان ميت ، ومن آيات الإنجيل ، ومن القدوة الصالحة ، ومن صوت الله على فم إمرأة خاطئة ...

فماذا كان المصدر الثابت لتعليمه ، ليس فى الدرس الخامس فقط إنما فى دروس عديدة ؟

• لقد تعلم أيضاً من التأمل فى الكتاب :

عيبنا فى هذا الزمان أننا نقرأ كثيراً ، ولكن تأملنا قليل ، لذلك لا ندخل إلى أعماق المكتوب ...

أما الأنبا أنطونيوس ، فلم تكن لديه كتب كثيرة مثلنا . كان راهباً بسيطاً ، من غير المعقول أن ينتقل فى البرية من مكان إلى آخر وهو مثقل بأحمال من المخطوطات !

كان يقرأ قليلاً فى كتاب الله ، ولا يقف عند المعنى الخارجى للكلمة ، أو المفهوم السطحى ، إنما يدخل فى عمق إلى روحانية الكلام . وحسبما قال القديس بولس الرسول : « خمس كلمات بفهم ، أفضل من عشرة آلاف كلمة بدون فهم » (١ كو ١٤ : ١٩) .

بهذا كان القديس أنطونيوس يفهم معانى الكتاب أكثر من غيره . وبهذا شهد له الكثيرون .

• وكان القديس أنطونيوس يتعلم أحياناً من أولاده ...

من أولاده الذين هو معلمهم . كما قال ، أنه كان يأخذ أحياناً من تلميذه الأنبا بولس البسيط ، وكان هذا يسكن فى مغارة تحت مغارة معلمه فى الجبل . وكانت فى حياته بساطة ونقاوة ، يصلح سلوكه أن يكون نافعاً ومفيداً لمن يرغب فى المنفعة .

وهناك أمور تعلمها القديس أنطونيوس من الله مباشرة ، عن طريق الكشف ، أو عن طريق الملائكة :

فلما حورب بالضجر فى الوحدة ، أرسل له الله ملاكاً يريه كيف يصلى ويعمل بيديه ، ويقاتل الضجر بعمل اليدين .

وأراه الملاك الزى الرهبانى ، القلنسوة المملوءة صلباناً ...

ولما حورب بالمجد الباطل ، أرشده الله إلى حيث يوجد القديس الأنبا بولا السائح ، ليأخذ درساً من حياته و يتضع ...

وقد تعلم القديس أنطونيوس أيضاً من الخبرة ومن حروب الشياطين :

كان يتعلم من الحيل التى يستخدمها الشياطين معه ، ومن أفكارهم وحروبهم ومحاولاتهم لإسقاطه . وهكذا بالخبرة والممارسة تدرب على أشياء كثيرة ، وإتسعت معارفه .

ولهذا بعد أن قضى تلميذه الأنبا بولس البسيط فترة معه ، يتتلمذ عليه ، و يعيش تحت ظل صلواته ، وكان يود أن يستمر هكذا ، أمره الأنبا أنطونيوس أن يسكن فى مغارة وحده ، (لكى يجرب حروب الشياطين) ... ويختبر ، و يتعلم ، و يتقوى ...

إذن كان الإختبار مصدراً من مصادر التعليم عند الأنبا أنطونيوس .

وفى الواقع كانت اختباراته كثيرة وعلى مدى طويل :

لقد عاش فى حياة الوحدة والنسك والصلاة أكثر من ثمانين عاماً ، وقد حفلت - وبخاصة فى بدايتها - بالعديد من الحروب ، أثارها الشياطين عليه لكى يبعدوه عن هذه الحياة الملائكية :

حاربوه بالأفكار والشكوك و شككوه فى هذا الطريق ، وفى مصير أخته ، وفى إمكانية استخدام المال للخير بدلاً من توزيعه على الفقراء . وحاربوه بالحواس ، والمناظر المخيفة ، وحاربوه فى عفته بمناظر العبث والنساء .

وظهروا له بهيئة فهود ونمور وأسود وحيوانات متوحشة ليرعبوه . فانتصر عليهم ولم يخف . وقال لهم : [لماذا هذا التجمهر؟ لو كنتم أقوياء ، لكان واحد منكم فقط يكفى لمحاربتى ، بينما أنا أضعف من مقاتلة أصغركم] ... نقطة ذكاء ...

وحاربوه أيضاً بالضرب والإيذاء ...

وبالأخص حينما كان يسكن فى مقبرة ، فى بدء رهبنته .

وربما يكون قليل من القديسين قد ضربوا من الشياطين ضرباً عنيفاً ، كما حدث للأنبا أنطونيوس .

لقد ضربوه بعنف شيطانى لا رحمة فيه ، حتى تركوه فى المقبرة ما بين حى وميت .
وهو نفسه قال عن هذا الحادث : [إن الضربات التى كانت تقع علىَّ . كانت من القوة والعنف ، بحيث أننى لا أظن أن قوة بشرية تستطيع أن تضرب بمثل ذلك الايلام وبمثل تلك القسوة] ...

ولما جاء العلمانى الذى يخدمه ووجده هكذا ، حمله إلى كنيسة القرية وهو فى غيبوبة ، فبكى عليه الناس . وعند منتصف الليل تقريباً ، وكان الناس قد انصرفوا ، فتح الأنبا أنطونيوس عينيه ، وسأل الأخ العلمانى : [أين أنا ؟] فلما أخبره أنه فى كنيسة القرية ، قال له : [إحملنى إلى المقبرة] . ولما أدخله فيها ، قال له : [اغلق وأمضِ] . ثم إعتدل الأنبا أنطونيوس وقال للشياطين .

[إن كان الله قد أعطاكم سلطاناً علىَّ ، فمن أنا حتى أقاوم الله ؟! وإن كان الله لم يعطكم سلطاناً ، فلن يستطيع أحد منكم أن يؤذينى !] . وبدأ يرتل مزاميره :

الرب نورى وخلاصى ممن أخاف ؟! الرب عاضد حياتى ممن أرتعب ؟ عند اقتراب الأشرار منى ليأكلوا لحمى ، مضايقى وأعدائى جزعوا وسقطوا . إن يحاربنى جيش ، فلن يخاف قلبى . وإن قام علىَّ قتال ، ففى هذا أنا مطمئن » .

وكانت الشياطين تنحل أمامه كالدخان وتمضى صارخة ...

ولما انتصر هكذا على الشياطين ، بدأت الشياطين تخافه عالمة أنه أقوى منها . وتعلم هو من هذا دروساً ...

تعلم أن لا يخاف من الشياطين ، وتعلم قوة الصلاة والمزامير وعجز الشياطين أمامها . وتعلم الشجاعة أيضاً ، والصلابة فى الجهاد . وأخذ خبرة فى العمل الروحى وفى حروبه .

ومن ذلك الحين ، بدأت الشياطين تخافه ، لأنه هزمها فى أكثر من ميدان . وألقى فيما بعد عظته عن ضعف الشياطين .

وأخذ قوة من ذلك كله ، على اخراج الشياطين وطردهم :

وعاش هذا الجبار وحده فى الجبل ، يملأ البرية صلاة وتأملات وتسبيحاً وترتيلاً وقدسية وطهراً ، وترتعب منه الشياطين ، وتحيطه الملائكة .

وعرف متى يقول لهم فى إتضاع : أيها الأقوياء ، ماذا تريدون منى أنا الضعيف ؟ أنا أضعف من أن أقاتل أصغركم . ألا تعلمون أنى مجرد تراب ورماد ؟ .

وتواضعه هذا كان يحرقهم ويطردهم بعيداً ...

وعرف أيضاً متى يكون حازماً وشديداً معهم . ويقول لهم فى ثقة .

[لو كنتم أقوياء ، لكان واحد منكم يكفى لمحاربتى] . [إن كان الله لم يعطكم سلطاناً علىّ ، فلن يستطيع أحد منكم أن يؤذينى] .

واستطاع أيضاً أن يميز أفكارهم وخداعهم وأحلامهم :

فى إحدى المرات أتاه الشيطان مرة ليوقظه ليصلى !! فلم يسمع منه . وقال له : متى أردت أن أقوم للصلاة ، سأقوم وأصلى . ولكن منك أنت لا أسمع .

وفى إحدى المرات تعجب البعض من سر كشفه لهم ، فسألوه عن ذلك قال : [أتى الشياطين فى حلم وأخبرونى] ...

لقد إكتسب إفرازاً وعلماً من حروب الشياطين :

إن الأنبا أنطونيوس فى تعليمه لغيره ، إنما كان يعلم من حصيلة خبرة طويلة ، لم يكن يعلم من معرفة الكتب . لم يحدث أنه قرأ كتاباً وفهمه ، وأخذ أفكاره وشرحها للناس .

إنما كان يحيا الحياة ، ويجرب ويختبر . ثم يعلم :

لقد عرف الشياطين وحروبهم ، وعرف الأفكار وحروبها ، وعرف الجسد وحروبه ، وجرب الرؤى والأحلام ... ومن ناحية أخرى ذاق حلاوة العشرة مع الله ، فى الوحدة والصلاة ، والتعزيات الإلهية ، والكشف الإلهى ، والتأمل . ومن واقع هذه الخبرة الطويلة مدى عشرات السنوات ، كان يتكلم كلاماً عملياً عن خبرة وتجربة ، وليس كلاماً من الكتب . لذلك كان لكلامه تأثير...

إن خبرة ٩٠ سنة فى الروحيات ليست أمراً هيناً إنها رحلة طويلة مشاها مع الله فى الجبل المقدس ... مشوار طويل مشاه فى البرية ، فى الصحراء ، يده فى يد الله ، وحياته فى قلب الله ... يختبر ويذوق ما أطيب الرب .

• والقديس الأنبا أنطونيوس ، كانت له عينان مفتوحتان ، تكشفان الأسرار وتستطيعان أن تمزقا الحجب ، وتريان ما لا يرى .

فى مرة من المرات كان واقفا مع تلاميذه ، ثم رأوه قد سها قليلاً ونظر إلى فوق فترة ، ثم تنهد . فسألوه ... فقال : [لقد إنتقل اليوم عمود كبير من أعمدة الرهبنة ... لقد رأيت روح الأنبا آمون وهى صاعدة إلى السماء تزفها الملائكة] ...

صدقونى يا إخوتى ، لقد وقفت مذهولاً فترة أمام هذه العبارة ... ! ما الذى رآه الأنبا أنطونيوس ؟ وكيف رأى ؟

إن أرواح البشر لا تراها العين المحسوسة المادية ، وكذلك أرواح الملائكة ! فهل رأى الأنبا أنطونيوس هذه الرؤيا بالروح أم بالجسد ! إن كان بالروح فكيف وهو فى الجسد ؟! وإن كان فى الجسد فكيف ؟ هل ظهرت الملائكة فى هيئة منظورة ، كما يظهرون أحياناً للبشر ، وهل كذلك ظهرت روح الأنبا آمون ؟ أم كان الأنبا أنطونيوس فى ذلك الوقت : « فى الروح » كما كان يوحنا الحبيب (رؤ ١ : ١٠) ، « فى الجسد أم خارج الجسد ؟ لست أعلم . الله يعلم » (٢ كو ١٢ : ٢) .

كان الأنبا أنطونيوس رجلاً مفتوح العينين ، يكشف له الله أموراً وأسراراً .

وقد تعلم كثيراً من الكشف الإلهى ، وتعلم من الرؤى ومن الملائكة ...

كما سبق له وتعلم من الموت ومن الحياة ، من الأبرار ومن الخطاة ، ومن التأمل فى كلام الله ...

ولما إمتلأ علماً فاض من علمه على الآخرين ...

وكان الفلاسفة يأتون إليه ، ليتعلموا من هذا الأمى ، الأمى فى نظر فلسفة اليونان والرومان ... !

هذا هو الأنبا أنطونيوس العجيب ...

الكنيسة مملوءة من العلماء والفلاسفة والمفكرين ، ومملوءة من الأساقفة والمطارنة والبطاركة وكل رتب الكهنوت .

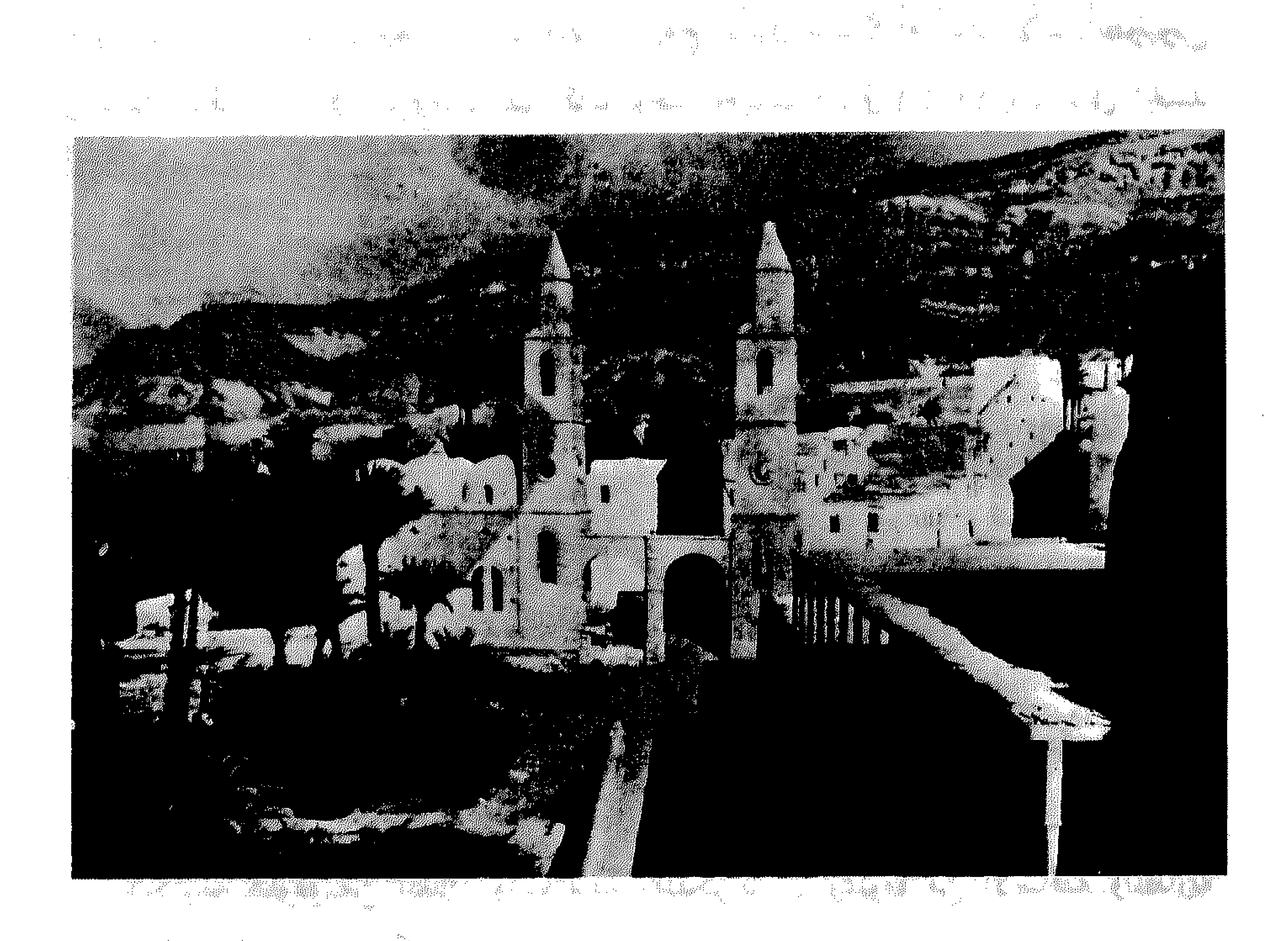
ولكن ليس فيها كثيرون من أمثال الرجل العظيم الأنبا أنطونيوس ! .

من هذه الطاقة الروحية الجبارة ، التى احتقرت الدنيا وما فيها ... وزهدت كل شيء : المال والشهرة والأسرة ، ومتع الأرض كلها ، والجسد ... فأصبح الله له هو الكل فى الكل .

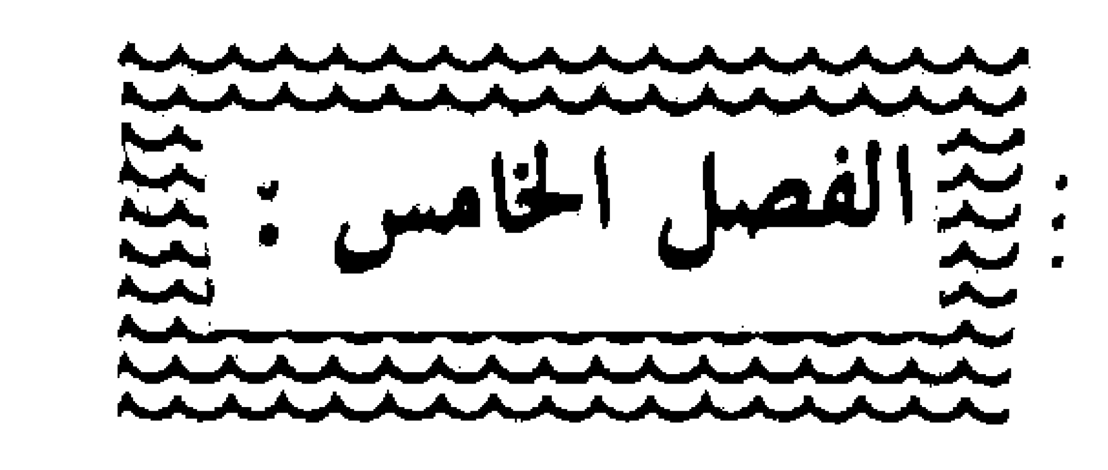
نادراً ما نجد إنساناً ناسكاً زاهداً عابداً ، مثل الأنبا أنطونيوس ! فكم بالأكثر إنساناً قائداً معلماً مثالاً فى هذا الطريق كالأنبا أنطونيوس ! نبغ فى الروحيات ، اختبرها ، وعلمها لغيره ، بالتعليم والقدوة الصالحة ...

نطلب بركة هذا القديس العظيم ، وبركة هذه الكنيسة المقدسة ...

ولإلهنا المجد الدائم إلى الأبد آمـين ،



دير القديس العظيم الأنبا انطونيوس



الفصل الخامس :

القديس أنطونيوس أعطى أم أخذ ؟

لاشك أن القديس أنطونيوس قد أعطى الرب كل شىء :

إنه حسب الوصية : « مضى وباع كل ماله وأعطاه للفقراء » ... أعطى الرب ثلثمائة فدان من أجود أطيان بنى سويف . وأعطى الرب أيضاً ما كان ينتظره من مركز وجاه كوريث لوالده . وأيضاً زهد فكرة الزواج وما كان يمكن أن ينجبه من أولاد . وكذلك زهد كل ما فى الدنيا من علم ومعرفة ومتع وصلة بالناس ...

ومع كل ذلك يلح علينا السؤال : هل هذا القديس قد أعطى أم أخذ ؟ أم أعطى فأخذ ؟ ...

ونتتقل من هذا السؤال إلى سؤال آخر يتبعه :

هل الرهبنة عطاء أم أخذ ؟ أم هى عطاء يتحول إلى أخذ ؟ أو عطاء يكافأ بأخذ ؟ الأخذ فيها أكثر من العطاء ؟

- **هذا القديس أعطى الله قطعة أرض (٣٠٠ فدان) .**

ولكن الله أعطاه الأرض كلها ، والسماء أيضاً ... فأصبح له فى كل بلد من البلاد أديرة ، وكنائس ، وأماكن مقدسة . وأصبحت له كل البرية أيضاً ، وكل الأديرة التى على أسماء قديسين آخرين ، لأنه أبو الرهبنة فى العالم كله . فهل أعطى أم أخذ ؟

إننى حينما أرى الأراضى والأملاك الموقوفة على دير الأنبا أنطونيوس فى مصر وحدها . أرى أنها أكثر مما تركه القديس الأنبا أنطونيوس فى قمن العروس ... ! بالأضافة إلى أرض الأحياء ...

أنظروا إن كلمة ربنا يسوع المسيح لم تسقط أبداً ، حينما قال :

« من ترك أباً أو أماً ... أو أخوة أو أخوات ، أو زوجة ، أو مقتنيات من أجلى ، يأخذ مائة ضعف فى هذا العالم ، وملكوت السموات » (مر ١٠ : ٢٩) .

لعل البعض حينما أعطى القديس أنطونيوس أرضه للرب ، قالوا عنه : مسكين ، ضيع نفسه وأرضه وثروته ومستقبله ... ! بينما يرد الرب عليهم قائلاً : « من أضاع نفسه من أجلى يجدها » (مت ١٦ : ٢٥) .

و يقول الكتاب للأنبا أنطونيوس : « مناك ربح عشرة أمناء » (لو ١٩ : ١٦) .

● ماذا ترك القديس أيضاً غير الأرض ؟ هل ترك أولاداً ؟!

لنفرض أن الشاب أنطونيوس ، بدلاً من الرهبنة تزوج وأنجب ، كم من أبناء كان سينجب ؟ خمسة ؟ عشرة ؟ عشر ين ؟ ... هوذا له الآن آلاف من أبنائه الرهبان فى كل جيل ، يصل عددهم إلى ملايين منذ بدأ الحياة الرهبانية فى أواخر القرن الثالث حتى الآن ... يضاف إلى ذلك ملايين من أبنائه الروحيين مثلكم ، من غير الرهبان ...

حقاً أن السيد المسيح حينما قال أن يعوض : « مائة ضعفاً » كان منكراً لذاته فى كرمه ، لأنه أعطى بآلاف الأضعاف ...

بل قد جعل الله هذا القديس يتخطى حدود المكان والزمان :

هذا الذى ترك بلده ، وتوحد فى الجبل لأجل الله ، تاركاً العالم لأجله ، أصبح العالم كله يتحدث عنه . اسمه وصل إلى أقطار المسكونة كلها . لا توجد قارة من قارات العالم الست ، لا تعرف الأنبا أنطونيوس ! اسمه تخطى حدود قر يته ، بل حدود مصر ، بل حدود أفر يقيا ، حتى فى أيامه ... وأصبح له أولاد وأديرة وكنائس فى كل موضع . وأصبحت له أماكن مقدسة لا تعد . حقاً ، هل أعطى أم أخذ ؟!

● وماذا أعطى القديس الأنبا أنطونيوس أيضاً للرب ؟ هل أعطاه عمراً ؟ هوذا الله جعل حياة الأنبا أنطونيوس تتخطى الزمان !

كثيرون تنتهى حياتهم فى الأرض بوفاتهم ، و ينساهم جيلهم بعد حين ، وتتنساهم الأجيال . هوذا قد مر أكثر من ١٦ قرناً على نياحة الأنبا أنطونيوس ، ومازال حياً بيننا حتى الآن ، حياً فى مبادئه ، وفى تعاليمه ، وفى أولاده ، وفى النهج الذى أختطه ، وفى ذكراه ...

إنه من الأسماء الخالدة التى لا تنسى . إنه روح كبيرة ، أكبر من الموت . لم يستطع الموت أن ينهى رسالتها . فلم تقتصر حياته على جيله ، بل تخطته عبر الأجيال ، ولا تزال بيننا . إنه صاحب حياة بدأت ولم تنته ...

عند رهبنة كل راهب ، يصلون عليه صلاة الأموات (أعنى المنتقلين) . على إعتبار أنه مات عن العالم . ولكن قديسنا هذا بموته عن العالم ، دخل فى الحياة التى لا تنتهى ، ومازال بها حياً بيننا .

أتراه أعطى الله حياة كرسها له ، أم أخذ حياة لا تنتهى ؟!

● هل لأجل الله أيضاً ترك جاهاً وسلطاناً وعظمة وشهرة ؟

إذ كان أبوه بالجسد ذا جاه وعظمة يورثها لإبنه ... هناك وأتخيل لو بقى القديس أنطونيوس فى مكان أبيه ، أى مستقبل كان ينتظره ؟ أتراه كان سيصير عمدة البلدة قمن العروس ؟ أو أعظم رجل فى المركز أو فى محافظة بنى سويف ، مدى حياته ، ثم ينساه الناس ، كما نسوا إسم أبيه على الرغم مما كان له من عظمة وجاه وغنى ... !

هوذا الأنبا أنطونيوس فى جيله ، يرسل إليه الأمبراطور قسطنطين يطلب بركته ، و يأتيه الفلاسفة والنبلاء من كل مكان يطلبون حكمته . و ينال شهرة لم ينلها أحد . وتسميه الكنيسة : « العظيم الأنبا أنطونيوس » .

أتراه حقاً فى هذه النقطة ، أعطى أم أخذ ؟!

● ماذا ترك أيضاً لأجل الله ؟ أتراه ترك الكهنوت ؟

فلم نسمع أنه نال من درجات الكهنوت أو رئاسة الكهنوت ...

ولكن هوذا أولاده صاروا بطاركة وأساقفة . بل أن البابا البطر يرك فى أيامه (القديس أثناسيوس الرسولى) كان أحد أولاده الروحيين . وجميع بطاركة العالم يسجدون فى مواضعه المقدسة و يطلبون بركاته ...

وكل رتب الكهنوت ، مهما علت ، تطلب فى القداس الإلهى صلوات الأنبا أنطونيوس ، وتتشفع به الكل يعتبرون أنفسهم أولاده ...

صدقونى ، لو إكتشفت قطعة قماش صغيرة ، ثبت أنها من ثوب للأنبا أنطونيوس لتنافس عليها كل بطاركة العالم وكهنته ورهبانه .

ترك الأنبا أنطونيوس الكهنوت ورئاسته . فصار كل رجال الكهنوت من أولاده . أتراه فى ذلك أعطى أم أخذ ؟!

حقاً أن الله يعطى أكثر مما يأخذ ، بما لا يقاس :

يأخذ حبة قمح ، ليعطيك سنابل مملوءة قمحاً .
يأخذ نواة بلح ، ليعطيك نخلة ، تحمل آلافاً من ثمار البلح .
وللأسف ، البعض يحجمون عن العطاء . تطلب الكنيسة من أم أن تعطى أبنها للرهبنة أو الكهنوت ، فتبكى وتمرض كأن كارثة ستحدث !
تعجبنى جداً فى الأمهات ، القديسة حنة أم صموئيل النبي . لم تنجب إبناء . ولما وهبها الرب صموئيل ، أعطته للرب وكان وحيدها ! فأعطاها الرب أولاداً آخرين كثيرين ، لعلكم لا تذكرون أسماءهم (١صم ١ : ٢٢) . أما الإبن الذى أعطته للرب ، فهو الوحيد الذى خُلد إسمه ، وعُرفت هى به أنها « أم صموئيل » .
أعط إذن للرب ، وسيرد لك أضعافاً ، دون أن تطلب أو تنتظر .

الأنبا أنطونيوس أعطى حياته للرب ، وليس فقط أملاكه . فماذا حدث ؟

أعطاه الرب بدلاً من هذه الحياة الأرضية ، حياة روحية خصبة . حياة أبدية مثمرة فى ملكوته ، أعطاه أيضاً حياة أبنائه ...

بل أن الأنبا أنطونيوس ذاته ، تحول إلى رمز...

أصبح ليس مجرد شخص ، وإنما صار رمزاً ، رمزاً لحياة الوحدة والصلاة والتأمل والزهد والنسك ، رمزاً لحياة الرهبنة بكل ما فيها من فضائل وروحانيات . وكما قيل فى إحدى القصائد .

أنت رمــــز لحــياة طُهــرت   أشتهى الخـالق يوماً أن تكـون

أصبح رمزاً لحياة الهدوء والسكون ، رمزاً للحياة التى تتخلى من الكل لكى ترتبط بالواحد ، الحياة السامية المقدسة التى لا تنشغل بتفاهات العالم وكل متعه ، لأنها تفرغت لله وحده ...

أعطى راحته وهدوءه ، وتعرض لحروب الشياطين وإيذائهم ...

بالتخويف ، بالضرب ، بالتشكيك ، فى صورة وحوش ، فى صورة نساء ، بأصوات مرعبة ، فى وحدة بلا أنيس ... !
ولكن الله أعطاه الإحتمال ، والقوة ، والإنتصار ، وعدم الخوف ، وأعطاه سلاماً داخلياً عجيباً ، وأعطاه مهابة روحية ، بحيث صارت الشياطين هى التى تخافه وترتعب

من قوته الروحية ، صارت له موهبة إخراج الشياطين . أتراه فى كل ذلك أعطى أم أخذ ؟!

● كذلك فى تركه العمران وسكناه القفر ، هل أعطى أم أخذ ؟

يبدو ظاهرياً أنه ترك بهجة العمران ، ودخل فى وحشة القفر . من أجل الرب . ولكن الرب جعل القفر عامراً بهذا الملاك الأرضى . وحول البرية إلى سماء ، كواكبها هم هؤلاء الملائكة الأرضيون . وصار هذا القفر مكاناً مقدساً ، يأتيه الناس من أقاصى الأرض ليتبركوا حتى بترابه ، وصار جبل أنطونيوس جبلاً مقدساً ، وبرية أنطونيوس صارت برية مقدسة . وكل شبر داسته قدماه ، باركه الرب ببركة خاصة . وفجر له فى القفر عين ماء . هل حقاً أعطى أم أخذ ؟! إن الناس يشتهون بركة بريته أكثر من كل مباهج العمران ...

إن الله يعطينا طبعاً أكثر مما يأخذ منا . ولكن ...

ولكن المهم أن نبدأ نحن بالعطاء . ولا نفكر حينما نعطى أننا نعطى . وأيضاً لا نفكر أننا سنأخذ عوضاً ...

إن من يجعل علاقته بالله ، علاقة طلب مستمر وأخذ ، هو إنسان متمركز حول ذاته . أما الإنسان الروحى ، فإنه يعبر عن حبه لله ، بالبذل المستمر ، ويقول للرب : « من يدك أعطيناك » (١ أى ٢٩ : ١٤) . بل فى تقديمه شيئاً لله ، يشعر بتفاهة ما يقدمه ، إذا ما قورن بما أخذه منه .

هوذا مثل من خارج الرهبنة ، هو موسى النبى :

لا شك أنه ترك قصر فرعون ، و « أبى أن يدعى إبن إبنة فرعون » وترك « كل خزائن مصر » ، وصار راعى غنم فى البرية ... تراه خسر أم كسب ؟!

لقد ترك الأمارة . فإذا بالرب يقول له : « جعلتك إلهاً لفرعون » (خر ٧ : ١) . وإذا بفرعون يتوسل أكثر من مرة إلى موسى ، طالباً منه أن يصلى عنه ، ليرفع الله عنه الضربات . وكان واضحاً أن موسى فى موقف أقوى من فرعون ... ثم صار موسى قائداً لشعب بأسره ، وأصبح رجل معجزات ، يشق البحر ، ويفجر من الصخرة ماء . لا شك أن موسى قد أخذ أكثر مما أعطى ، بما لا يقاس .

إن علاقتنا بالله هي علاقة أخذ مستمر ، بلا عطاء :

هل تقول إنك تعطى الله وقتاً للصلاة ؟ كلا ، إنك لا تعطى وقت الصلاة ، بل تأخذ بركة ونعمة ، وتنال عملاً من الروح القدس داخلك ، وبركات لا تحصى .

الله أعطاك أسبوع عمر ، وأنت تقدم له يوماً من هذا الأسبوع الذى وهبك إياه ، فهل أنت تعطى ؟! كلا ، بل أنت تأخذ بركة هذا اليوم . وكما يقول الكتاب أن : « السبت قد أعطى للإنسان » (مر ٢ : ٢٧) .

القديس أنطونيوس ، حينما أعطى حياته لله ، لم يكن يفكر إطلاقاً أنه سيأخذ كل ما أخذه ، وما جال ذلك بفكره . .

وفى نفس عملية العطاء بالنسبة إليه ، كانت عملية أخذ :

أخذ فيها بركة الجلوس مع الله ، وبركة حياة السكون والتأمل . وأخذ فيها بركة هذا الطقس الملائكى . وأخذ النعمة الكبرى التى عملت فيه حتى إستطاع أن يصمد فى الوحدة .

إنه لم يقل إطلاقاً : « سأعطى الله صلواتى » ، بل كان شعوره : أريد أن أتمتع بالله والوجود معه ، وأن يعطينى الله هذا الشرف وهذه المتعة ، متعة الوجود فى حضرته .

شعور الإنسان بأنه يعطى الرب ، شعور خاطىء روحياً :

فنحن باستمرار نقترب إلى الله ، لكى نأخذ ...

ثم ، من نحن حتى نعطى الرب ؟! ومن هو الرب الذى نعطيه ؟

الله مالك السموات والأرض ، وخالق السموات والأرض ، وصاحب كنوز النعم التى لا تحد ولا تفرغ ... هل من المعقول أننا نعطيه ؟!

الأرملة التى أعطت رجل الله إيليا حفنة دقيق وقليل زيت ، هل أعطت أم أخذت ؟ أنظروا ، هوذا : « كوز الدقيق لا يفرغ ، وكوز الزيت لا ينقص » طول مدة المجاعة (١مل ١٧ : ١٤) .

وهكذا الأنبا أنطونيوس ، علمنا أن الحياة الروحية هى أخذ دائم من الله ، أخذ بركة ، ومتعة ، فى كل عمل روحى .

ولو لم يكن القديس أنطونيوس يأخذ متعة روحية ، فى كل أيام حياته فى البرية ، أتراه كان يستطيع الحياة فى القفر ؟!

لو لم يكن يأخذ نعمة وقوة ، أتراه كان يستطيع مقاومة كل حروب الشياطين ، فى كل عنفهم وكل حيلهم ... ؟!

إنه كان يعيش إلى جوار صاحب النعم كلها ، يغترف منه بالليل والنهار ، نعمة ، وقوة ، وبركة ، ومتعة روحية ...

كان ممكناً للشاب أنطونيوس ، بالغنى الكثير الذى ورثه ، أن يتعلم ، و يأخذ من العالم معرفة وعلماً وشهادات دراسية .

ولكنه من الله أخذ معرفة عميقة ، ما كان ممكناً للعالم أن يعطيها ... معرفة كانت تذهل كل فلاسفة وعلماء عصره ...

وكان الناس يأتون من أقاصى الأرض ، لكن يسمعوا من فمه كلمة منفعة ، أو كلمة حياة ، يخلصون بها ...

إنها كلمات أخذها من الله ، لها عمقها ، ولها قوتها وفاعليتها وتأثيرها ، وليست معرفتها من النوع الذى يعطيه العالم .

لقد فضل أن يعيش فى جهالة مع الله ، تاركاً علم العالم . «فأعطاه الله فماً وحكمة» (لو ٢١ : ١٥) . وأعطاه علماً يفوق الكل فانذهل علماء الأرض من هذا (الأمى) . فهل الأنبا أنطونيوس أعطى أم أخذ ، وهوذا العالم كله يستفيد من تعاليمه ...

ولأنه رفض من أجل الله معرفة العالم ، أعطاه الله علماً روحانياً ، علماً إلهياً ... أعطاه علم معرفته ...

ليس فى الأمور النسكية فقط ، وإنما حتى فى اللاهوتيات أيضاً . وقد أفحم الأريوسيين لما نزل إلى الإسكندرية ، وكان لكلماته تأثير عميق . ويعتبره العلماء أستاذاً للقديس أثناسيوس ...

أن الله حينما يضع كلمة فى فم إنسان ، يزود هذه الكلمة بقوة وتأثير وفاعلية ، لا يستطيع أحد أن يقاومها ...

كان الأنبا أنطونيوس جهازاً جيد التوصيل لكلمة الله ، ولنعمة الله ، ولبركة الله ، وللسلام الممنوح من الله ...

كان إنساناً يأخذ من الله ، ويعطى للناس ، نفس القوة ...

لقد فرحت السموات ، لما وجدت على الأرض هذه الآنية المختارة ، التي تستطيع أن تحمل نعمة الله للناس ، وفي نفس الوقت تحتفظ ببساطتها وهدوئها ، دون أن ترتفع ، ودون أن تنتفخ ...

ولم تكن كلمات هذا القديس فقط هي التي تفيض نعمة ، وإنما كانت حياته أيضاً كذلك ، وكانت هكذا ملامحه .

كان كل إنسان يرى الأنبا أنطونيوس ، يحب أن لا يفارقه . كان وجهه يفيض بركة ، وحديثه يفيض نعمة ، وحياته تفيض روحاً ... لذلك لا نعجب لتلميذه الذي قال له : [يكفيني مجرد النظر إلى وجهك يا أبي ...] .

بالنسبة إلى الله ، كان القديس أنطونيوس يأخذ باستمرار ...

وبالنسبة للناس ، كان هذا القديس يعطي باستمرار ، كسيده ...

ولقد أعطاه الله الكثير ، لما زهد كل شيء ، لأجله ...

أعطاه موهبة المعجزات والآيات والعجائب ، فكان يشفي المرضى ، وكان يخرج الشياطين ... وكان الناس يقصدونه لا من أجل المعرفة الروحية فقط ، والبركة ، وإنما أيضاً لأجل معجزاته .

هل هذا يقارن بما تركه من مال أو جاه أو أهل ؟!

إنه لما أغمض عينيه عن المال ، فتحهما الله للرؤى السمائية :

فكم من مرة رأى ملائكة ، وكم من مرة تحدث معهم ؟!

لقد ظهر له ملاك يشرح له كيف يصلي و يعمل و يقاوم الملل . والملاك هو الذي سلمه قلنسوة الرهبنة ...

وفي إحدى المرات رآه تلاميذه ناظراً إلى السماء وساهماً ، فعرفوا أنه رأى شيئاً ، فسألوه . فأخبرهم عن نياحة الأنبا آمون أب جبل نتريا ، إذ رأى روحه يزفها الملائكة بالتهليل إلى السماء .

طوباك أيها القديس الأنبا أنطونيوس ، إن عينيك اللتين رفضتا أن تنظرا إلى المال ، وهو ملقى على الرمال ، صارتا تنظران الملائكة وأرواح القديسين ، أيها البار المفتوح العينين ... وماذا أيضاً ؟

قال القديس الأنبا أنطونيوس : [أبصرت مرة فخاخ الشيطان مبسوطة على الأرض ، فألقيت نفسي أمام الله وقلت : يارب ، من يفلت منها ؟ . فأتاني الصوت من السماء « المتواضعون يفلتون منها »] ...

طوبى لهاتين الأذنين اللتين أغلقتها أمام أغاني العالم وطربه وأحاديثه ، فإستحقتا أن تسمعا صوت الله في هذه المناسبة وغيرها ، وأن تسمعا تهليل الملائكة وهم يحملون روح الأنبا آمون ...

حقاً ، كلما نترك شيئاً لأجل الله ، نأخذ أضعافاً ، وبنوعية أفضل ، « ليس بكيل يعطى الروح » (يو ٣ : ٢٤) إنه يعطى بلا حدود ...

إن الذى ترفض من أجله خزائن العالم ، يفتح أمامك خزائن السماء والمواهب الروحية ، كما حدث للقديس الأنبا أنطونيوس ، الذى ترينا حياته ، مقدار عمل الله في النفس البشرية ...

لقد ترك الزواج والنسل الجسدى ، أنظروا عدد وحلاوة أولاده :

من أولاده القديس مقاريوس أبو الإسقيط ، والقديس الأنبا آمون أب جبل نتريا ، والقديس بنوده رئيس أديرة الفيوم ، والقديس إيلاريون مؤسس الرهبنة في سوريا وفلسطين. ومن أولاده الأنبا بولس البسيط ، والأنبا بيساريون ، والأنبا سرابيون ، والأنبا شيشوى ... وكثيرون ...

حقاً « ترنمى أيتها العاقر التى لم تلد » وسعى خيامك لأن أولادك يصيرون أكثر من ذات البعل ... (إش ٥٤ : ١) .

إننى لا أستطيع أن أدخل فى جزئيات ، وأقول أن الأنبا أنطونيوس ترك من أجل الله مالاً ، أو أرضاً ، أو وقتاً ، أو زواجاً أو أولاداً ...

إنما هو أعطى الله الحياة كلها ، كذبيحة طاهرة قدامه . فأخذ الله هذه الحياة ، وقدسها وباركها وزودها بالمواهب ، وأعطاها للعالم .

عندما يقول الله : « يا أبنى ، أعطنى قلبك » (أم ٢٣ : ٢٦) ، هل تظنون أنه يريد أن يأخذ هذا القلب ؟ كلا ، بل هو يريد أن يملأ هذا القلب حباً وبركة وبراً . ويريد أن يأخذ هذا القلب فيطهره من كل خطية ، ويجعل روحه القدوس يسكن

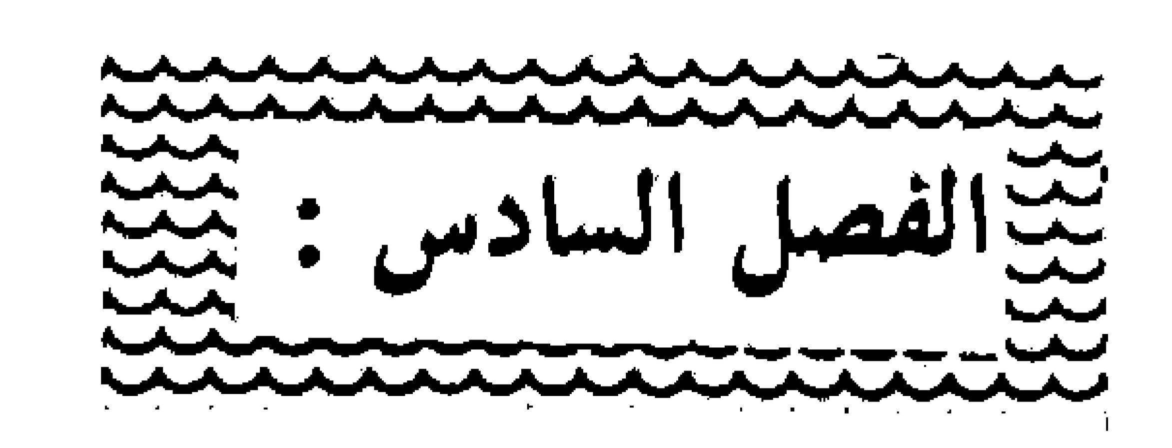
فيه ... كمن يقول لك : « أعطنى جيبك الفارغ لأملأه خيرات » . أهو يأخذ أم يعطى ؟

عندما تعطى الله قلبك ، إنما تعطى فراغك ، والله يملأ ...

تعطى ضعفك ، وتأخذ قوة الله . كمن يعطى العشور ، لتفتح له كوى السماء ، ويفيض الله عليه حتى يقول كفانا كفانا (ملا ٣ : ١٠) .

تقدم لله ، أعطه إرادتك ، ليعطيها قوة ، ويرجعها إليك منتصرة ...

أتكون إذن تعطى أم تأخذ ؟!



الفصل السادس :

القديس أنطونيوس ومحبة الوحدة والسكون

إننا لا نستطيع أن نتأمل حياة الأنبا أنطونيوس فى يوم عيده ، دون أن نتذكر حياة الوحدة والسكون التى عاشها ، وثمار هذه الحياة فى حياته وفى تعاليمه ...

لقد ذكر عنه القديس أثناسيوس الرسولى أنه قضى ثلاثين سنة ، وقد أغلق على نفسه فى وحدة كاملة ، لا يرى فيها وجه إنسان . وفى هذه الوحدة اختبر ثمار السكون ، فى خلوة كاملة مع الله . وأمكنه أن يفرغ ذهنه من تذكارات العالم وأخباره وتفاهاته ، لكى يملأ هذا الذهن بالله وحده ، فلا يفكر إلاَّ فيه .

وفى مذاقته لحلاوة السكون نصح أولاده فيما بعد ، خوفاً عليهم من أن يتبدد سكونهم خارج البرية ، فقال :

[الراهب فى الدير كالسمكة فى البحر ، لا تحيا خارج مياهه] ...

وحتى حينما عاش معه القديس الأنبا بولس البسيط بضع سنوات ، يتتلمذ عليه ، ويحيا تحت ظل صلواته ، طلب إليه أن يدخل إلى البرية ويحيا وحده [ليجرب حروب الشياطين] .

إنه الدرس الأول الذى أخذه الأنبا أنطونيوس [إن كنت راهباً ، فأدخل إلى البرية الجوانية] ... وكان هذا هو الدرس الذى يقال لكل راهب ، فى أن يتعلم الهدوء :

[إجلس فى قلايتك ، والقلاية ستعلمك كل شيء] ...

إن القديس الأنبا أنطونيوس هو الذى وضع أساس الرهبنة الأصيل . والنظام الذى وضعه هو الذى بقى أكثر من غيره ... أكثر من حياة الشركة التى كانت تعتمد على رئيس حازم قوى كالقديس باخوميوس مثلاً ، يديرها بدقة وجدية ، و يعاقب من يكسر قوانينها ... فإذا لم توجد هذه الرئاسة ، انتهى قيام الرهبنة تبعاً لذلك ... وهكذا إنتهت كثير من أديرة القديس باخوميوس .

أما القديس أنطونيوس فكان يبنى الراهب من الداخل ، بمحبة الوحدة والسكون ، أكثر مما يبنيه بقوانين صارمة تحفظ طاعته ...

كان يبنى قلب الراهب ، لا مجرد إرادته ... وتصرفه ...

كان يميت العالم داخل قلبه ، ولا يقتصر على إماتة التصرفات العالمية فى سلوكه . وهذه الإماتة كانت تأتى أولاً بالوحدة ، بالبعد عن الكل ، لحفظ العقل فى السكون . وتأتى ثانياً بإنشغال الفكر والقلب بالله فى حياة السكون . ما أجمل قول مار إسحق :

[إن مجرد نظر القفر ، يميت من القلب الحركات العالمية] .

فى البرية تربى موسى قبل عمله الرعوى أكثر مما « تهذب بكل حكمة المصريين » . وإلى البرية نقل الله أبانا إبرآم ، حيث تدرب على حياة الخيمة والمذبح ، أى الغربة والشركة مع الله . وفى البرية تدرب إيليا ، على جبل الكرمل . وفى البرية تدرب أيضاً يوحنا المعمدان ، أعظم من ولدته النساء . وربنا يسوع المسيح أيضاً أحب البرية والجبال ، وترك لنا فى ذلك مثالاً ، حتى كما كان يختلى فى جبل الزيتون (يو ٨ : ١) ويقضى الليل فى الصلاة ، نفعل نحن أيضاً ...

وهكذا عاش الأنبا أنطونيوس ، ليس أياماً ، وإنما الحياة كلها ...

عاش بعيداً عن المدن ، وما فيها من صخب وضجيج وضوضاء ، وأيضاً بعيداً عما فيها من دوامة المشغوليات ، التى لا تعطى فرصة لجلوس الإنسان مع نفسه أو جلوسه مع الله ...

حقاً ، لقد سألت نفسى مرة : لماذا خلق الله كل هذه الصحراوات ؟

هذه الصحراوات الواسعة ، وهذه الجبال والتلال ، فى كل قارة من القارات ، تمثل الهدوء والوحدة ، بعيداً عن صخب المدن ...

أليس فى كل هذا إيحاء ، يشير إلى الناس بحياة الهدوء ؟!

وكان السيد المسيح يأخذ تلاميذه إلى موضع قفر ، حتى تتركز حواسهم فى كلامه ، ولا تنشغل بالمناظر والأفكار ...

إن كل إنسان فى الدنيا ، مهما تعمق فى الحياة الروحية ... هو محتاج إلى فترات هدوء ، يجلس فيها إلى الله ، وإلى نفسه ...

يهدأ بعيداً عن المشغوليات ، و بعيداً عما تجلبه الحواس من أفكار... وفى هدوء يأخذ من الله ، وأيضاً يفحص ذاته ، و يأخذ من أعماق أعماقه ، حيث يسكن الله أيضاً .

هذا هو أول ما يجذبنا ، فى الحياة العميقة التى عاشها قديسنا :

وحياة السكون هذه ، لها دلالتها الروحية الكثيرة :

فليس كل إنسان يستطيع أن يحياة حياة السكون فى البرية . وإن إستطاع ذلك بضعة أيام أو أسابيع ، فلا يستطيع أن يحيا فى البرية العمر كله ، إلاّ إن كانت له دوافع روحية راسخة ، كما كان للقديس أنطونيوس . فما هى هذه الدوافع ؟

أول صفة تستلزمها حياة البرية ، هى الزهد :

إن الذى يحب العالم ، تجذبه أمور العالم ، فلا يستطيع أن يبقى فى البرية إذ يشتاق إلى ما تركه فى العالم من أمور محببة إلى نفسه . وكما قال الكتاب : « حيثما يكون كنزك ، فهناك يكون قلبك » (مت ٦ : ٢١) . إنما يحيا فى البرية ، الإنسان الذى مات قلبه عن العالم موتاً حقيقياً . بمقدار ما يكون قلبه مائتاً عن العالم ، هكذا يكون ثباته فى البرية أيضاً .

إذن الموت عن العالم ، يسبق بالضرورة الحياة فى البرية :

والقديس الأنبا أنطونيوس كان قلبه قد مات عن العالم وكل رغباته : ترك الأهل والبلد والمال والجاه والعلم وكل شىء . ولم يعد يشتهى شيئاً عالمياً ، لذا إستطاع أن يسكن فى مقبرة ، وأن يسكن فى القفر و أن يحتمل الجوع والعطش والوحدة ...

كذلك السكنى فى البرية تحتاج إلى شجاعة قلب :

يصلح لها قلب لا يخاف ... لا يخاف الوحدة ، ولا الظلام ، ولا الوحوش والدبيب ، ولا الشياطين ... وهكذا كان الأنبا أنطونيوس ، لقد تعرض لحروب مخيفة جداً . وكان الشياطين يظهرون له فى هيئة وحوش مفترسة ، تصيح بأصوات مرعبة ، وتهجم عليه . ومع ذلك لم يخف ، بل وقف صامداً أمامهم ... كذلك هاجموه لما كان فى المقبرة ، وضربوه ضرباً مبرحاً جداً ، ولم يهتز إطلاقاً . وفيما بعد أصبحت الشياطين هى التى تخاف الأنبا أنطونيوس ، وأخذ قوة من الله على طرد الشياطين ...

هذا هو الأنبا أنطونيوس رجل البرية ، وإبن الجبال ، صاحب القلب القوى الذى لا يخاف ، الذى عاش فى الجبال وحده عشرات السنوات ، لا يؤنسه سوى الله .

السكنى فى البرية أيضاً يلزمها إنسان يعرف كيف يقضى وقته حسناً ، بحيث لا يمل من فراغ يحيط به ...

فالوحدة ليست مجرد عمل سلبى ، هو البعد عن العالم ، أو الموت عن العالم ، إنما هى عمل إيجابى فى الحياة مع الله والإلتصاق به ، ومذاقة حلاوته والعشرة معه . وهذا هو الهدف الأساسى من الوحدة ، التى تعتبر مجرد وسيلة للإلتصاق بالله . وإن كانت الوحدة هى الإنحلال من الكل ، فإن مار إسحق يقول :

[الإنحلال من الكل ، للإرتباط بالواحد] ...

والأنبا أنطونيوس عاش حياة الصلاة وحياة التأمل ، منشغلاً بالله كل وقته ، فكراً وقلباً ، فلم يمل ، ولم يعد محتاجاً إلى عزاء بشرى يسليه . وصارت الوحدة بالنسبة إليه متعة روحية ، بسبب العشرة الإلهية التى شغلت حياته ...

ولم يعش وحده فى البرية ، إنما كان الله معه .

عرف أن « الحاجة إلى واحد » ، ونجح فى الإرتباط بهذا الواحد .

ولما عاش فى حياة السكون ، دخل السكون إلى قلبه أيضاً .

وكما قال مار إسحق : [بسكون الجسد ، نقتنى سكون النفس] .

هدأت حواسه ، وهدأت أفكاره ، وهدأ قلبه من الداخل ، وهدأت ملامحه أيضاً ، وصار مصدراً للسلام لكل من يتصل به . وفيه أحب الناس هذه الحياة الهادئة الساكنة المملوءة بالسلام .

بمرور الوقت زالت من فكره كل التذكارات القديمة التى عاشها فى العالم ، وأخذت نقاوة فكره تنمو شيئاً فشيئاً ، حتى لم يعد فى فكره سوى الله وحده . اُمحيت من ذهنه كل العالميات ، إذ لا استعمال ، ولا جديد يضاف إليها ، بل لا جديد سوى الأمور الإلهية التى رسخت فى ذهنه ، وملكته كله .

وفيما بعد ، حينما سمح أن يكون له تلاميذ ، وزوار ، لم يكن يكلمهم إلاَّ عن الله

وحياة الروح . فصارت حياته كلها مركزة فى الله ، فكراً ، وشعوراً وكلاماً ... ومات العالم من حوله .

استطاع أن يحول الأرض التى عاش فيها إلى سماء ، وأن يحول أبناءه الرهبان إلى ملائكة أرضيين أو بشر سمائيين .

أما أنتم يا إخوتى ، فإن كنتم لا تستطيعون أن تسكنوا الجبال ... **فعلى الأقل لا تحرموا أنفسكم من الخلوة والسكون على قدر طاقتكم .**

ولو بضعة أيام كل سنة ، أو يوماً كل أسبوع ، أو ساعة كل يوم ، أو بضعة دقائق كل ساعة ...

انفضوا ضجيج العالم من آذانكم ، وغوصوا داخل أنفسكم ، واكتشفوا فى أية الطرق أنتم سائرون ، وماذا ينبغى على كل منكم أن يفعل ... واجلسوا مع الله ، وخذوا منه معونة ...

ولا تجعلوا الفترة تطول بكم وسط ضجيج العالم ، حيثما استطعتم أن تنسحبوا من هذا الضجيج ، انسحبوا بسرعة ...

وإن لم تستطيعوا أن تنسحبوا منه موضعياً ، فعلى الأقل انسحبوا منه موضوعياً ... فلا تشتركوا فى أعماله وأحاديثه ...

كونوا كغرباء فى الموضع الذى لا يناسبكم حديثه . لا تشتركوا فى الكلام ، إن لم يمكنكم تغيير دفته . وفيما أنتم صامتون ، إسرحوا بأفكاركم فى الله وملكوته ، دون أن يشعر أحد .

وهكذا تحتفظون بقلوبكم مع الله ، سواء كنتم فى خلوة أو مع الناس ، كما قال عن ذلك (الشاعر) :

كنت فى مجتمع أو خلوة	أنا وحدى ، يستوى الأمران عندى
لى طريق مفرد أحببته	عشت فيه طول هذا العمر وحدى

المهم أن محبة السكون تكون فى القلب ، وكإحدى نتائجها تتكون الرغبة فى الإختلاء بالله ، حتى وسط مشغوليات المجتمع .

ونصيحتى أنكم لا تأخذون أمور العالم بعمق ...

لا تجعلوا أمور العالم تستقر فى عمق اهتمامكم ، بحيث تستولى على ذهنكم ، ويطيش فيها فكركم وقت الصلاة ... !

وفى محبتكم للوحدة ، لا تنفروا من الناس ومحبتهم ، بل انفروا من الأخطاء ... لأن هناك فرقاً بين الوحدة والإنطواء ...

والقديس الأنبا أنطونيوس كانت حياته حباً للوحدة ، حباً فى الله ، ولم تكن انطواء ولا كراهية للناس أو عجزاً فى معاملتهم فكلما سنحت الفرصة ، كان يفيض حباً على الناس ، وكانت معاملاته تتميز بالطيبة والوداعة واللطف ...

الفصل السابع :

القديس أنطونيوس ومحبته لله

لما ملكت محبة الله على قلب القديس أنطونيوس ، إنتزع الخوف تماما من قلبه ... حتى من الله نفسه ، ما عاد يخاف ...

وإستطاع أن يقول لتلاميذه ، تلك العبارة المشهورة عنه :

[يا أولادى ، أنا لا أخاف الله ...] .

فلما تعجبوا قائلين : [هذا الكلام صعب يا أبانا] ... أجابهم : **[ذلك لأنى** أحبه . والمحبة تطرح الخوف إلى خارج] (١ يو ٤ : ١٨) .

حقاً ، إن الحياة الروحية يمكن أن تبدأ بمخافة الله ، كما قال الكتاب : « بدء الحكمة مخافة الله » (أم ٩ : ١٠) . وبالمخافة ينفذ الإنسان الوصايا . ولكنه إذ يمارس الحياة الروحية ، يجد فيها لذة ومتعة ، فتزول المخافة و يبقى الحب . وكلما نما الإنسان فى محبته لله ولوصاياه ، حينئذ : « المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج » .

والقديس الأنبا أنطونيوس ، عاش فى هذه المحبة : بدأ بها ، فدفعته إلى الوحدة ثم نما فيها ، حتى وصل إلى قمها ...

لولا محبته لله ، ما إستطاع أن يحيا فى الوحدة فمحبة الله إحدى الصفات الجوهر ية التى ينبغى أن يتميز بها من يطلب الوحدة . وكما نقول فى صلاة القسمة عن آبائنا السواح والمتوحدين : « وسكنوا فى الجبال والبرارى وشقوق الأرض ، من أجل عظم محبتهم للملك المسيح » . هذه المحبة هى التى دفعتهم إلى سكنى الجبال ، لكى يتفرغوا لعشرة الرب الذى أحبوه ...

من أجل هذه المحبة ، ترك القديس كل شىء ، لأن الله عنده هو أثمن وأغلى من كل شىء ، ومن كل أحد . ولأن محبة الله تشجع القلب ، فلا يحتاج إلى محبة أخرى تسنده أو تعز يه .

محبة الله هى الدافع إلى الوحدة ، وهى الدافع إلى الصلاة :

أحب القديس الله . ومن محبته له إنفرد به ، وأصبح لا يستطيع أن يفارقه ، ولا

يستطيع أن ينشغل عنه بشخص آخر. وكما قال الشيخ الروحانى فى ذلك : [محبة الله غربتنى عن البشر وعن البشريات] . ومن محبته له ، وجد متعة روحية فى مخاطبته والتحدث إليه ، كما يقول داود النبى : « محبوب هو إسمك يارب ، فهو طول النهار تلاوتى » ، وكما نقول فى التسبحة : « إسمك حلو ومبارك ، فى أفواه قديسيك » .

إن عمق الرهبنة هو فى معناها الإيجابى : الإلتصاق بالله . أما معناها السلبى : البعد عن العالم ، فهو مجرد وسيلة ...

ما أحلى قول داود النبى : « أما أنا فخير لى الإلتصاق بالرب » (مز ٧٣) . وكيف يلتصق الإنسان بالرب ، إن كان بكل مشاعره وفكره منشغلاً بالعالم وما فيه ؟! ...

ومحبة الله ، كما قادت للوحدة والصلاة ، قادت إلى الزهد :

لأن الشخص الذى يذوق الله وحلاوة محبته ، يبدو كل شىء آخر تافهاً أمامه . وأمام حلاوة الله ، يفقد كل شىء آخر قيمته ، ويصبح باطلاً وقبض الريح . وكما قال بولس الرسول : « خسرت كل الأشياء ، وأنا أحسبها نفاية ... لأربح المسيح » (فى ٣) . وهنا نجد الزهد ليس مجرد عمل تغصب ، يُغصب فيه الإنسان نفسه على ترك مقتنيات العالم وملاذه من أجل الله ، إنما هو إقتناع عميق بتفاهة كل شىء . وهذا الإقتناع نتيجة لمحبة القلب لله ...

وهكذا يرى الإنسان أن كل متع العالم لا تشبعه ، فيزهدها ، لأن قلبه قد إنفتح على محبة أكبر ، وأعمق ، وأسمى ، هى محبة الله ، التى تضاءل أمامها كل شىء آخر.

ومن الناحية المضادة ، إن ملكت محبة العالم على قلب إنسان ، نزعت منه محبة الله ، ولذلك يقول الرسول إن : « محبة العالم عداوة لله » ...

ونحن نسأل أنفسنا : كيف استطاع القديس أنطونيوس ، أن يسكن وحده فى تلك المغارة البعيدة ؟ وكيف إحتمل البعد عن كل عزاء بشرى ؟ وكيف وجد شبعه فى الوحدة ؟

الجواب هو أنه كان شبعاناً بمحبة الله ، فلم يعوزه شىء .

الوحدة بالنسبة إليه ، لم تكن وحدة مطلقاً ، وإنما كانت فى حقيقتها عشرة مع الله ، ومع ملائكته ...

عشرة ألذ من عشرة البشر ، ومن المجتمعات البشرية .

وعشرته مع الله جعلت المحبة تنمو فى قلبه ، فحينما كان يلتقى بالناس ، كان يلتقى بهم فى حب . وكانت معاملاته لتلاميذه مُشبعة بروح الإتضاع والود ، من ثمار الحب الذى فيه .

وهكذا لم تكن وحدته إنطواءً، وإنما حباً ...

ومع محبته للقديس بولس البسيط ، طلب إليه أن يسكن وحده ، لفائدته الروحية . لأنه كان يحبه حباً روحياً ، يدفعه إلى أن ينمى محبة التلميذ لله ، ولو فارقه ... إنها محبة لا تلصقه به شخصياً ، إنما تلصقه بالله ، الذى يحب المعلم والتلميذ كليهما معاً ، أنطونيوس العظيم وبولس البسيط ...

مديحة للأنبا أنطونيوس

للبابا شنوده الثالث (يناير ١٩٦٢)

حينما كان اسمه : الراهب أنطونيوس السريانى

١ ـ فى كنيسة الابكار فى مجمع الأطهار
قائم بكل وقار بنيوت آفا أنطونيوس

٢ ـ قائم بمجد عظيم مع لباس الإسكيم
فى طقس السارافيم بنيوت ....

٣ ـ بصلاة روحانية بحياة إلهية
دشنت البرية بنيوت ....

٤ ـ بجهاد فى الصلوات عشرات السنوات
بدموع فى المطانيات بنيوت ....

٥ ـ بنسك فى الأصوام على مدى الأيام
بنفس لا تنام بنيوت ....

٦ ـ بزهد فى اللذات بهذيذ فى الإلهيات
وتأمل فى الروحيات بنيوت ....

٧ ـ أُعطيت روح إيليا وحنة النبية
ويوحنا بن زكريا بنيوت ....

٨ ـ إرتاع الشياطين من قلبك الأمين
وصلاتك كل حين بنيوت ....

٩ ـ حاربوك مدة طويلة بذلوا كل وسيلة
بكم حيلة وحيلة بنيوت ....

١٠ - بأختك ذكروك لكيا يقلقوك
بهذا ويرجعوك بنيوت ....

١١ - نثروا الذهب والمال أمامك على الجبال
يضوى بين الرمال بنيوت ....

١٢ - أتوك بطرب وغناء وصور النساء
لتسقط فى الإغراء بنيوت ....

١٣ - وأتوك بشكل أسود ونمور وفهود
بصياح كالرعود بنيوت ....

١٤ - جاءوك بآذاهم لتخاف من رؤياهم
تواضعك أخزاهم بنيوت ....

١٥ - صرخت يا أقوياء لماذا هذا العناء
تراب أنا وهباء بنيوت ....

١٦ - عجبى لتجمهركم على ضعفى وتظاهركم
أنا أضعف من أصغركم بنيوت ....

١٧ - يا برج عالى وحصين يا مثال للمنسحقين
تتواضع للشياطين بنيوت ....

١٨ - يا قوة ومثال على مدى الأجيال
يا ساكن الجبال بنيوت ....

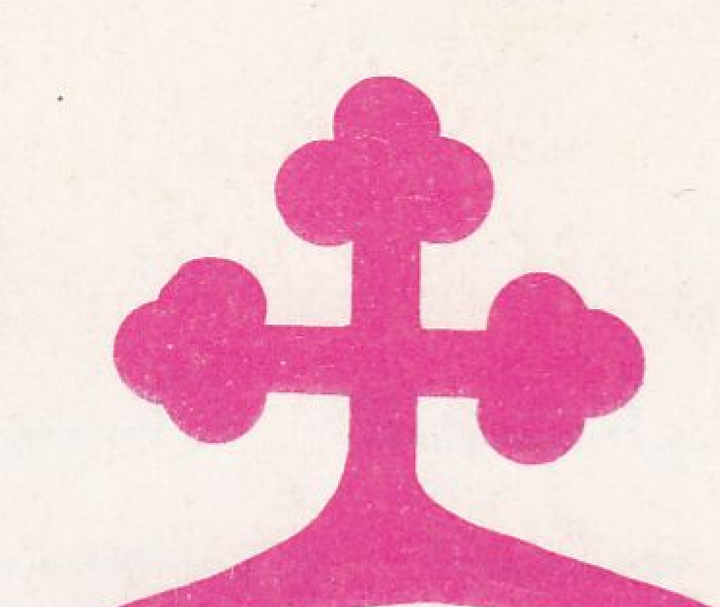
١٩ - يا مثال للبتولية والقوة الروحية
وهدوء البرية بنيوت ....

٢٠ - كرائحة بخور كأنغام المزمور
حياتك نور من نور بنيوت ....

٢١ - يا عظيم فى جهادك يا حكيم فى إرشادك
أشفع فى أولادك بنيوت ....

٢٢ - لم نحى كحياتك لم نسلك فى صفاتك
فأذكرنا فى صلاتك بنيوت ....

٢٣ - إشفع فى مذلتنا وضعف طبيعتنا
فى مدة غربتنا بنيوت ....



في هذا الكتاب





باسم الآب والإبن والروح القدس
الإله الواحد آمين

إن سير القديسين ليست مجرد تاريخ ،
ولا مجرد وقائع وأحداث ...

إنها مشاعر ، ومشاعل ...

إنها شركة أناس مع الروح القدس فى
كل ما يحيط بهم .

إنها عمل النعمة فى قلوب ،
استسلمت إرادتها لعمل النعمة ...

وفى هذا الكتاب ، تحاول هذه
الصفحات أن تقترب من قدس أقداس ،
هو قلب الأنبا أنطونيوس ...

نقترب من حياته ، لتنتفع حياتنا ...
فليت روحه تشفع ، لننال قوة ،
نتحدث به عن روحه ...

شنوده الثالث





